KALEMAT

يُحكى أنّ

قصص قصيرة

أدهم شرقاوي
« قس بن ساعدة »





الطبعة الأولى

يُحكى أنَّ

أدهم شرقاوي
قسُ بن ساعدة

بلوتيكا

الإهداء

إلى أقماري الأربعة التي تدور في فلك حياتي فتنيرها ،

إلى فاطمة : الحلوة كحبة سُكّر . . . الحنونة كأم . . . العربيّة كمطلع قصيدة

إلى ملَك : النقيّة كحبّات المطر . . . الحلوة كدعاء أم لغائب

إلى مالكٍ : الشقيُّ العذب ، العذب الشقيّ ، الشّهم على صغر ، الرجل على طفل

إلى ليان : آخر الحب . . . وأعذبه

مُقدّمة:

«يُحكى أنّ» حكايا امرأة عجوز، كتَبتْها بشفتيها الأميتين على دفتر ذاكرتي، فكبرتُ بها ومعها، ترددتُ كثيراً قبل إلباس الكلمات ثوباً من فصاحة، إذ أنّ اللغة المحكيّة جزء لا يتجزأ من الحكاية، ثمّ إني قررتُ أن أكسوها حرفاً عربيّاً من غير سوء، معتقداً بذلك أنّي أُطلقها من قفص صدري وذاكرتي إلى فضاء العربيّة الرّحب.

أنا هنا لا أكتب الحَكايا بقدر ما أحررها، ثمة أشياء في الحياة من الإجحاف أن تبقى ملك فرد، أو أسرة، أو قوم. ثمّة أشياء كالهواء من حق كل فرد أن يتنفّسه ولا يملك أحدٌ حقّ مَنعِهِ عن أحد، ثمّة أشياء كضوء الشمس لا يحق لأحد أن يدّعيها لنفسه، ويصادرها، وهذه الحكايات من هذا النوع!

أنا هنا أُشرككم ببعض جدّتي، معتذراً أنّي ما استطعتُ أن أحمّل الكلمات شيئاً من صوتها، الجزء الأجمل من كل حكاية، صوتها العذب الذي ما زال يدقُّ في أذني كجرس لا تكف عن تحريكه رياح الحنين!

غير أنّي لم أكتفِ بتحويل الحَكايا من العاميّة للفصحى، بل عمدتُ ما يأتي:

غيّرتُ بعض أحداث الحَكايا، ومسارها، حيثُ وجدت أنّ هذا يخدم حبكةً قصصيةً أمتَن، ويُضفي على النّص عنصر الواقعيّة.

أخفيتُ أسماء الشخصيّات التي كانت غالباً محددة، إذ أني أسلَفْتُ أنّ أهم أسباب هذا الكتاب هو نقل الحَكايا من الدائرة الشّخصية الضّيقة، إلى دائرة العموم الرّحبة.

أسقطتُ بعض المفردات غير «اللائقة» التي تزخر بها كتبُ القصص الشعبيّ.

في حكايا الأنبياء، أسقطتُ ما تعارض مع الإسلام، إذ أنَّ الموروث الشعبي زاخر بالخرافات، التي تختلط فيه الاسرائيليات بالأساطير، ولكني أبقيتُ على ما رواه القوم، ولم أعثر له على أثر عندنا، شرط أن لا يتعارض مع الشريعة، ففي النهاية المعتقد الديني أحد الجوانب التي يُدرس من خلالها الإنسان، وتوثيق القوم كان أحد أهداف الكتاب.

أدخلتُ السجع على بعض مواطن الحكايا ظناً مني أن هذا وإن حوّلها من التراث المحكي، للعربية الفصيحة، يحافظ على شيء من تراثيتها، إذ أن الحكاية العربيّة القديمة، عرفت السجع، وتوازن العبارات، والعرب عموماً مولعون بنغمة السجع نثراً، والروي والقافية شعراً.

أعطيتُ الحوار جزءاً أوفر مما كان عليه ، إذ أن الرّاوي في الحَكايا الشعبيّة هو المتحكم بزمام القَصِّ ، فحاولتُ أن أخفف من حضور الرّاوي لحساب حوار تجريه الشّخصيات ، ظنّاً مني أن هذا يضفي على القصة حركيّة ، ويبعد عنها الرتابة .

ينتهي تقديم الكتاب ، ولا تنتهي معه أمنيتي ، وهي أن أكون خدمتُ الحَكايا ولم أشوّهها !

شجرة الأماني

يُحكى أنَ أخوين عاشا في قرية هانئة وادعة ، كان أحدهما ذا مالٍ كثير ، وعقلٍ راجح ، يواسي الفقراء بحلال ماله ، ويصلح بين المتخاصمين بصواب رأيه ، يحبُّ النّاس ويحبونه ، ويودّهم ويودّونه .

أما الآخر فكان على فقره ، وقلة ذات يده ، أبلهاً أحمقاً ، وتوّج ذلك كلّه بحسد أخيه رغم إحسانه إليه ، وكان حلم حياته أن يُضاهي أخاه مالاً وعقلاً!

نام الحسود ذات ليلة فرأى فيما يرى النائم أنّه في مغارة ، فأخذ يتجوّل فيها ، فعثر أثناء تجواله عِلى فانوس ، فحكّه فخرج له من القمقم مارد عظيم وقال له : «شُبيك لَبّيكَ ، خادمك بين يديكَ ، سلْ تُعطَ ، ومُر تُطَعْ !»

فقال الحسود فوراً : أريد أن أضاهي أخي!

فقال المارد : إنما جُعلتُ لتحقيق الأمنيات من الأشياء ، لا لإسداء النصائح ، ولكن في البلد الفلانيّ جبلاً أجرداً ، لا ماء ولا نبات فيه ، اللهم إلا شجرة في قمته تُسمى شجرة

الأماني ، فإذا كان الصباح فاذهب إليها فسترشدك!

لما أصبح الحسود ، حمل زاده وتوجّه من فوره مسرعاً ، يطوي الأرض ، ويسابق الريح ، يريد الوصول إلى شجرة الأماني بأسرع وقت .

وهو في الطريق قابل ضبعاً ، فسأله الضبع عن وجهته ، فأخبره أنّه ذاهب إلى شجرة الأماني ، فعندها إجابات لكل الأسئلة .

فقال له الضبع : هل لكَ أن تُسدي إليّ معروفاً؟

قال الحسود : على الرّحب والسعة .

قال الضبع : سل شجرة الأماني عنّي ، فإني أصيد كثيراً ، وآكل طريّ اللحم ، وأشرب عذب الماء ، ورغم هذا فإني نحيل الجسم ضعيف على ما ترى .

قال الحسود : سأفعل

تابع سيره يصعد جبلاً ويهبط وادياً ، إلى أن وصل إلى بستان كبير يُصلح صاحبه سياجه ، فألقى عليه السلام ، ودار بينهما حوار ، وسأله صاحب البستان عن وجهته ، فأخبره أنّه ذاهب للقاء شجرة الأماني التي ترشد الناس وتجيب عن الأسئلة .

فقال البستانيّ : هل لكَ أن تُسدي إليّ معروفاً

قال الحسود : على الرّحب والسّعة

فقال البستانيّ : سَل شجرة الأماني عن حال بستاني ،

فإني أعمل فيه ليل نهار ، أنكش تربه ، وأشذب شجره ، أقلع عشبه ، وأحنو على غرسه ، ولكنك كما ترى ، شجره هزيل وثمره قليل .

قال الحسود : سأفعل

وتابع طريقه يستقبل قرية ويودّع أخرى ، إلى أن وصل إلى قصر مشيد ، كثير القباب ، يُناطح السحاب ، وصادف عودة الملك من رحلة صيد ، فطلب الملك من حراسه أن ينظروا في أمر هذا الغريب ، فعادوا إلى الملك وأخبروه بقصة الحسود ووجهة سيره .

طلب الملك من حراسه أن يحضروه ، واختلى به ، وقال له :

هل لكَ أن تسدي إليّ معروفاً

قال الحسود : على الرّحب والسعة أيها الملك .

قال الملك : إنّي كما ترى ، جندي كثير ، وملكي كبير ، ولكن النّاس لا تهابني كما تهاب الرّعية الملوك ، فسل شجرة الأماني عن السبب .

فقال الحسود : سأفعل

وتابع طريقه وما كادت شمس ذاك النهار تغيب حتى كان أمام الجبل الأجرد ، فرفع نظره إلى القمة ، فإذا شجرة وحيدة في قمته ، فعرف أنها شجرة الأماني ، نسيَ تعبه حين وقع على ضالته ، وصعد الجبل بسرعة ، كأنما يقطع سهلاً لا يصعد

جبلاً ، لا يُلقي بالاً بناتئ الصخر وغلظة الوعر ، إلى أن وصل عند الشجرة وقال : السّلام عليكِ يا شجرة الأماني!

قالت الشجرة : وعليكَ السلام أيها الإنسان

قال الحسود : جئتُ إليكِ أحمل أسئلة كثيرة ، بعضها لي وبعضها للناس

قالت الشجرة : عُد أدراجك فإني سأنطقُ على لسانك حين تدرك صاحب السؤال!

قفل الحسود راجعاً ، ووصل إلى قصر الملك ، فاستأذن الحراس أن يدخل على الملك ، فأخبروه أنّه منذ أيام في انتظاره ، وحملوه إليه على جناح السرعة ، فطلب الحسود أن يختلي بالملك

قال الحسود : أنتَ أيها الملك امرأة ، لما مات ملك البلاد ، وقف الطائر على رأسك ، فبايعك الناس بالحكم كعادة أهل البلد ، فغيّرتَ هيئتك ولكنك لم تُغيّر طبعك!

قال الملك : لا يعلم بالأمر إلا أنتَ ، فابقَ معي تتزوجني ونحكم معاً هذه المملكة!

قال الحسود : لا ، أنا أريد أن أضاهي أخي !

ومضى في سبيله ، مشى أياماً إلى أن وصل إلى البستانيّ فوجده منتظراً على أحر من الجمر ، فقال له : أيّها البستانيّ إن في بستانك شجرة زيتون معمّرة تحتها كنز تحرسه حيّة وهي سبب هزل شجرك وقلة ثمرك!

حمل البستانيّ فأسه وتوجّه نحو الشجرة وقلّب تراب الأرض إلى أن عثر على الحية فقتلها وأخرج الكنز ثم قال للحسود : ما رأيكَ أن تعيش معي هنا ، فنعمل معاً ، فكما ترى البستان كبير والمال كثير!

فقال الحسود : لا ، فأنا أريد أن أضاهي أخي !

ومضى في سبيله يصعد جبلاً ويهبط وادياً- إلى أن وصل حيث الضبع ، فوجده بالانتظار ، وقصّ عليه ما حدث مع الملك والبستانيّ ، ثم قال له : أنتَ أيها الضبع مريض ، ودواؤك أن تأكل إنساناً أحمقاً .

فقال له الضبع : عرض الملك عليك الزواج فرفضتَ ، وعرض عليك البستانيّ شراكته فأبيتَ ، وإني والله لئن طفتُ الأرض ما وجدتُ أحمق منك ، فانقضَّ عليه وأكله !

حديث الطّاحونة

يُحكى أنَّ كريماً وبخيلاً ترافقا في سفر ، ثم سَارا ما شَاء الله لهما أَن يسيرا ، وجلسا يستظلان شجرة ، فأخرجَ الكريم زاده وقال للبخيل : نأكلُ زادي أولاً ، ثم إذا كان الليلُ أكلنا زادك . . .

وحين ودّعت الشمسُ وهج الحُمرة ، وأرخى الليل سُدوله ، قرر البخيل أن يأكل الزاد وحده ، متذرعاً أنَّ السفر طويلٌ والجوع شديد ، فغضب الكريم وقرر أن يفارقه ، وهكذا كان . . .

مشى الكريمُ تحت جنح الظلام إلى أن وصلَ إلى طاحونةٍ مهجورةٍ ، فقال في نفسه : أبيتُ الليلةَ هنا ، وحين يصبحُ الصَّباح سيقضى الله أمراً كان مفعولاً ، ثم صعد إلى حُجرةٍ مرتفعةٍ من الطاحونة ، وقبل أن يستسلمَ للرقادِ بدأت مجموعة من الحيواناتِ المفترسةِ تدخلُ إلى الطاحونة تِباعاً : الأسدُ ، النَّمرُ ، الفهدُ ، الضَّبعُ ، الثعلبُ ، النمسُ وابن آوى . . .

وبعد أن اكتملَ النِّصابُ ، وقفَ الأسدُ قائلاً :

السلام عليكُم معشرَ الغَاب ، حللتُم أهلاً ووطأتم سَهْلاً ،

فمرحباً بكم في اجتماعنا الشَّهري !

ثمَّ أردفَ قائلاً : لقد اطلعتُ على تقاريرِكُم ، وأعجبني حسنُ تدبيرِكُم للأمور ، وحصَافتكم في التعاملِ مع الرَّعية ، وأنا أَشكرُ لكم جهودكم ، وأشدُّ على أياديكم ، وأهيبُ بكم أن تحافظوا على علو همتكم ! والآن إن كان لدى أحدكم ما يطلعنا عليه فليفعل !

قال الضَّبعُ : يا ملكَ الزمان ، في المنطقةِ التي تكرَّمتَ عليَّ بإدارة شؤونها ، فأرٌ يملكُ مئةَ ليرةٍ ذهبيةٍ ، يُخرجُها مع شروقِ الشمسِ ليرةً ليرةً ، ثم يتركها في الشمسِ ساعةً ، ويعيدها إلى مكانها . . .

قال النَّمرُ : أيها الملكُ الرشيدُ ذو الرأي السَّديدِ ، في المنطقةِ التي أَوكلتم للعبدِ الفقير إدارتها ، ملكٌ من بني البشر ، جبارٌ رعديد ، كثيرُ الأعوان ، مسموعُ الرأي مُطاع ، غير أنَّ له ابنة قد عجزَ الطبُّ عن شفائِها ، وقد وعد الملكُ أنْ يزوجها ممن يشفيها من علتها ، ودواءُ الأميرةِ - يا ملك الزمان - دماغ كلبٍ برأسين يملكه راع بمنطقة كذا . . .

قالَ النّمسُ : يا مَنْ اشترى قلوبَ الرَّعيةِ بالعدلِ ، وأطفأَ غلَّهم بالمساواة ، في منطقتي شجرة لا تثمر ، جذورها ضَاربة عبابَ التراب ، وأغصانها ناطحة أسبابَ السَّماء ، وتحتَ الشَّجرة كنز لا يتسعُ له مجلسك المبارك .

قالَ الثَّعلبُ : السَّلام على الملكِ الذي طوَّع الرعيَّة بعدلِه ،

وخـوَّف العُـصـاةَ بزئيـره ، لقـد تنكَّرتْ الطرائدُ ، وتفنّنَتْ في الهرب ، ولم يعدْ بالإمكانِ الوصول إليها إلا بِشِقٍّ الأنفس . . .

قـال ابنُ آوى : يا عـاليَ المقام ، فَصَلَ البـشرُ بسياج بيننا وبين الدجاج ، وإنَّ قومي يتضورون جوعاً ، وقد صارت بنات آوى تأكل الثِّمار والخُضار .

قـالَ الذئبُ : أيهـا الملكُ الذي غطى الغـابَ بعبـاءةِ عـدله ، وتكرَّم على الرَّعيةِ بواسع صبره ، كَثُر القنصُ في منطقتي ، والرعيةُ هناك تشكو إليك ظلم بني آدم ، فلا تتأخرْ عنهم ، فما عهدَكَ القومُ إلا حامياً للأعراضِ ، منكِّساً لرؤوسِ عِداك . . .

كلُّ هذا الحـديثِ والكريمُ منصتٌ مـسـتـمعٌ من مكانِه ، حابسٌ أنفاسَه كي لا تفتكَ به براثِنُ الوحوشِ الكاسرة . . .

وبعـدَ أن عَـسْعَسَ الليلُ مـا شَاءَ الله له أن يُعَـسْعِس ، وتنفَّسَ الصباحُ بأمر من شرعَ له التنفس ، انفضَّ الجمعُ وسارَ كلٌّ في طريقِه ، فتوجَّه الكريم إلى حيثُ الفأر ، فوجدَه - على وصفِ الضَّبع - يخرجُ الليراتِ الذهبية ليرةً ليرةً ، ولمَّا أتمها مئة تناول الكريمُ حجراً ورمى به الفأر فأرداه ، وأخذَ الليرات وتوجَّه إلى حيثُ الراعي . . .

نظرَ الكريمُ إلى الكلبِ فعرفَه بصفاته ، فعرضَ على الراعي أن يبيعَه إياه بعشرِ ليرات ذهبية ، فسارعَ الرَّاعي إلى القبول ، واصطحبَ الكريمُ الكلبَ إلى ظلِّ شجـرةٍ بعيـدةٍ عن الطريقِ ، فقتله ، وأخرجَ دماغَه ووضعَه في زجاجةٍ فارغةٍ كان قد

أحضرهَا لهذا الغرضِ ثم توجَّه إلى المَلك وقال له : بلغني أنَّ مرضَ الأميرة أعجزَ الأطباءَ ، فماذا أنتَ فاعل إن استطاعَ العبدُ الفقيرُ أن يشفيها ؟

قالَ الملكُ : إن شَفَيْتَها فهي زوجة لك ، وإن كنتَ ممن يدعون الطبَّ قطعتُ رأسكَ!

وافقَ الكريمُ شريطةَ أنْ يعالجها في غرفةٍ لا يراهُمَا فيها أحدٌ إلا الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماء . . .

دخلَ الكريمُ الغرفةَ وأخذَ يدهنُ الأميرةَ بدماغ الكلب فأخذت تتحرك ، ثم صبر ساعةً وأعادَ دهنَها أُخرى ففتحتْ عينيها ، ثم صبر ساعةً ودهنَها أُخرى فتكلمت ، ثم صبر ساعةً ودهنها فقامت - بأمر من خلق العلة والدواء - وكأنها لم تكن تشكو علةً من قبل !

أحضرَ الملكُ القاضِي وعقد للكريم على ابنته ، صبيحةَ اليوم التالي قال الكريم للملك : أي عَمّ ، إنَّ بأرضِ كذا من مملكتك شجرة أوصافها كذا وكذا ، تحتها كنز بصفات كذا وكذا فأرسلَ الملكُ مع الكريم قائدَ الجيشِ وجنودَه وكثيراً من العمال ، فحفروا ، واستخرجوا الكنز ، ووزع الكريمُ قسماً منه على العمال الذي حفروا ، وللمفارقةِ وجد صاحبه البخيلَ بين العمال ، فأجزل له العطاءَ ، فرفضَ البخيلُ أن يأخذَ شيئاً قبل أنْ يقصَّ عليه قصته ، وكيف وصل إلى هذا العزّ الذي هو فيه .

فقصَّ الكريم على البخيل القصة وما كان من حديثِ

الطاحونة ، فخرج البخيلُ مسرعاً إلى الطَّاحونة ، وكان قد مضى شهر بالتمام والكمال ، ولما اكتملَ النصابُ طلبَ الأسد من الحيوانات الحديثَ ، فانبرى الذئب قائلاً : يا ملكَ الغاب كيفَ نُحدِّثك ، وفي المرة الماضيةِ حدثناك فقُتل الفأرُ والكلبُ وأُخرجَ الكنزُ ، أظنُّ أنَّ أحداً ما يسمعنا ، فنبشوا أرجاء الطاحونة فوجدوا البخيل وقطعوه إرباً .

كيد النّساء غلب كيد الرّجال

يُحكى أنّ تَاجِرَ قُـمـاشٍ من عكا علّق على الجِدارِ خَلفَ مكتبِهِ لَوْحةً كَتبَ فِيها : كَيدُ الرِّجالِ غَلبَ كيدَ النّساء . . .

وحـدثَ أنَّ امـرأةً دَخلتْ عَليـهِ ذاتَ يوم لتـشـتَـريَ بَعضَ حَاجَاتها ولمَّا قَرأتْ مَا علَّقَه التَّاجِرُ أبدَتْ امتِعَاضاً شَدِيداً وقَالتْ لَه : إنَّ كَيْدَ النِّساءِ غَلبَ كَيدَ الرِّجال .

وتشَارعـا ما شـاءَ الله لهُمـا أن يتشَـارعَا دونَما فـائدة ثمَّ إنَّ المرأةَ مَضَت في سَبيلِها وعادَ التَّاجرُ الى تجَارته . . .

وَطَوالَ الطَّرِيقِ إلى بيتِـها ظَلّت المرأةُ تفكِّرُ بِطريقَـةٍ تكسِـرِ فِيها رأْسَ هذا التَّاجِرِ العنيد . . .

صَـبيحَـة اليومَ التَّالي تَنكَّرت بثيابِ امرأةٍ على مَشَارِفِ السِّتين وحَمَلت عُكَّازاً ووضَعت نظارةً سَميكَةَ العَدَسَاتِ حتى بَدَتْ من دُنيا العَجَائز حقاً . . .

دخَلتْ على التَّاجِرِ فلمْ يَعرفها وقَالتْ له بصَوتٍ باهِتٍ أيُّها التَّـاجرُ إنَّ الله ابتلانِي بولد نغَّصَ عَليَّ حَـياتِي فـلا يسـمَعُ لي نُصحاً ولا يُعيرُ لي سَمعاً وإنَّه قد عَشقَ امرأةً مُتزوجَةً وأنا

حَاولتُ أن أُثنيَهُ عن ذلكَ دونَ جَدوى . . .

تداركَتِ المرأةُ أنَّها أفرطتْ في الشَّرح وقَالتْ بِسرعةٍ إنَّ ابنيَ قدْ وَعَدَ مَحبوُبَته تلكَ بقطعَةِ قُماشٍ لَا مَثيلَ لها في عَكا ؛ قالَ لَها التَّاجرُ بِسرعَةٍ لقد وصَلني منذُ يومينِ ثوبُ قُماشٍ من اسطَنبولَ ليسَ لهُ في بلادِ الشَّام كلِّها مثيل . . .

قَالت له المرأةُ هل ليَ بقصَاصَةٍ صَغيرةٍ منه حتى أعرضَها على ابني ليعرضَها على محبوبتَه فوافقَ التَّاجرُ وقامَ بقصٍّ قطعةَ قماشٍ بحجم الكفِّ وناولَها للمرأةِ ومضَت في سبيلِها . . .

خَرجتِ المرأةُ من دكّانهِ وسألت عن بيتِه فدلُّوها عليه فذهَبت وطرقَتِ البابَ ففتَحت زوجَةُ التَّاجرِ فقَالتِ المرأةُ : يَا بُنيتي أنا امرأةٌ من مدينةٍ أُخرى وقد أدركَنى وقتُ الصَّلاةِ فهلا أَذنْتِ ليَ بأن أُصَليَ في بيتِك .

رحّبَتْ زوجة التّاجرِ بالمرأةِ أَيّما ترحيبٍ وجهَّزتْ لَها الوضُوءَ ومكانَ الصَّلاةِ وتركَتها لصَلاتِها ومضَتْ لبعضِ شُؤونِ بيتِها . . .

أَخرجَتِ المرأَةَ قِطعَةَ القُماشِ ووضَعتها على السَّريرِ ومضَت في حالِ سَبيلها . . .

ثُمّ إنَّ التَّاجرَ عادَ الى بيتِه بعد الظُّهرَ ليرتاحَ قليلاً فوجَدَ قِطعةَ القُماشِ فلمْ يُراودُه أدنى شَك بأنَّ زوجتَه هيَ محبُوبَة ابنِ تلكَ المرأة .

بِسُرعَةٍ نَادى على زَوجَتِهِ فحضَرت وقالَ لهَا اجمَعي

أَغراضَكَ وإلى بيتِ أهلكِ فاستحلفته بالله إلا قالَ لها ما السبَبُ فأبى وقالَ إذا عُدتِ إلى البيتِ قبلَ أن أُرسِلَ في طَلبكَ قطَعتُ رأسَكِ وإذا حاولوا إعادتَكَ اليَّ إيّاكِ أن تعودي . . .

اغتَمَّ التَّاجرُ أياماً طويلةً وتدهورت تِجارتُه . . .

مرَّتِ المرأةُ بدكانِه فرقَّت لحَالِه وقالتْ حانَ وقتَ إصلاح الأمور . . . عادت الى بيتِها ولبست ثيابَ العجوزِ ونظّارتها وجاءَت الى دكّانه فلمّا رآها قامَ من على كرسيِّه كالمجنون يريدُ أن يضربَها فحالَ بينهما زبون . . .

فقالت لهُ ما تريد . . . قالَ لعنةُ اللهِ عليكِ وعلى ابنكِ . . . قالت له كلَّ هذا لأجلِ قطعةِ قماشٍ أخذتُها منكَ فماذا ستفعلَ الآنَ وقد جئتُ إليكَ أطلبُ قطعةً أخرى لأنِّي لما أخذتُ الأولى منكَ أَدركني وقتُ الصَّلاةِ فطرقتُ باباً ففتحت امرأةٌ غايةٌ في الأَخلاقِ والجمالِ فأحسنَتْ إليَّ وأعدَّت وضوئي ومكانَ صَلاتي ولكني نسيتُ قطعة القُماشِ عندها وتُهتُ عن البيتِ وأُريدُ منكَ قطعةً أُخرى !

انفرجت أسَاريرُ الرَّجلِ وقال أَحقاً ما تقولينَ ؟ !

قالت له : ما كانَ إلا ما أخبرتُكَ به . قال : إليكِ الثوب كله بلا مال وخرجَ مُسرعاً ليعيدَ زوجتَه . . .

صَبيحةَ اليوم التالي دخَلَ على التَّاجِر غلامٌ أعطَاه ورقةً وانصَرف ولمَّا فتحَها وجَد فيها جُملةً تقول : ليسَ لي ولدٌ ولا هناكَ حبيبة ولكنَّ كيدَ النِّساءِ غلبَ كيدَ الرِّجال .

من سَاعتهِ نزعَ التَّاجر اللوحةَ القديمةَ وهو إلى اليومَ يعلِّق على الجدارِ خلف مكتبهِ لوحةً تقول : كيدُ النِّساءِ غلبَ كيدَ الرِّجال .

لا أحد ينسى جرحه

يُحكى أن أحد الرعاة اعتاد أن يرعى قطيعه في مرج قريب ، وكان من عاداته إذا بدأت الخراف ترعى أن يضرب في مزماره ألحاناً عذبة ، وحدث مرّة أن خرجت حيّة من جحرها تتمايل وتتراقص جذلة طربة من بديع لحنه ، ثم عادت إلى جحرها وأخرجت ليرة ذهبية ، وألقتها للراعي ثم غابت عن الأنظار .

أخذ الراعي الليرة الذهبية وعاد إلى بيته تغمره السعادة ، صبيحة اليوم التالي قصد الراعي ذات المكان ، وما إن بدأ ينفخ في مزماره حتى خرجت الحية من جحرها تتراقص وتتمايل كما فعلت البارحة ، ثم دخلت جحرها ، وأخرجت ليرة ذهبية وألقتها للراعي ، واختفت عن الأنظار!

استمر الحال على هذا المنوال ، وبدأت أحوال الراعي تتحسن ، فقرر أن يذهب لأداء فريضة الحج ، وأوصى ابنه بالقطيع ، وأوصاه وتعهد عليه أن يرعى حيث شاء إلا في تلك البقعة دون أن يخبره عن السبب !

ارتحل الأب إلى مكة ، وساق الولد القطيع إلى المرعى ، ثم إنه حدّث نفسه قائلاً : ما نهاني أبي عن الرعي في تلك الناحية إلا لأمرٍ في نفسه .

ودفعه الفضول وحماس الشباب إلى اكتشاف المجهول .

ذهب بالقطيع إلى الناحية التي نهاه عنها أبوه ، وبدأ ينفخ في مزماره ، فخرجت الحية على عادتها تتمايل وتتراقص ، ثم دخلت جحرها وأخرجت ليرة ذهبية وألقتها للشاب ، وغابت عن الأنظار .

أخذ الشاب الليرة الذهبية وعاد إلى البيت جذلاً طرباً وقال في نفسه : لا شكَّ أن هذه الحيّة تُخفي كنزاً كبيراً وإن أنا قتلتها استأثرتُ بالكنز وحدي!

صبيحة اليوم التالي حمل سيفه ومزماره عاقداً العزم على قتل الحية وأخذ الكنز ، بدأ القطيع يرعى وأخذ يعزف في مزماره فخرجت الحية على عادتها كل مرّة ، فاستل سيفه وعاجلها بضربة قطع لها ذيلها فلدغته فإذا هو جثة هامدة!

عاد الوالد إلى بيته بعد أن أدى فريضة الحج فأخبروه كيف وجدوا ابنه في البرية صريع لدغة أفعى .

فقال في نفسه : هذا لا شكَّ صنيع الحية صاحبة الذهب .

وأضمر في نفسه الشرّ وعزم على الثأر!

ذهب الراعي حيث اعتاد أن يرعى في الأيام الخوالي ، وبدأ يضرب في مزماره ألحانه القديمة ، فخرجت الحية كما

كانت تفعل ، ثم عادت بسرعة ودخلت جحرها ، وأخرجت ليرة ذهبية وألقتها للراعي وقالت له : خذها وامضِ بسلام ولا تعد ، فأنتَ لن تنسى ابنك وأنا لن أنسى ذيلي . . والسلام !

الزّوجة التي تريد الطلاق

يُحكى أنّ امرأة كثُر شجارها مع زوجها ، فعزمتْ على الطّلاق منه ، وذهبتْ إلى شيخ القرية ، الذي يرجع إليه النّاس في مشاكلهم ، فقصّت عليه قصّتها ، فقال لها :

سأساعدكِ بشرط أن تحضري لي شعرة من شارب أسد !

أخذت المرأة تُفكّر وتُفكّر ، فقد وضعها الشّيخ بين أمرين أحلاهما مُرّ ، إمّا أن تبقى مع زوجها وتستمر مشاكلهما ، ويسمع النّاس صراخهما ، أو أن تذهب إلى الغابة ، وتخاطر بحياتها ، لأجل شعرة أسد ، هي وسيلتها الوحيدة للخلاص !

قصدت السّوق ، واشترت خروفاً ، وذهبت إلى مكان يشرف عليه عرين الأسد ، فربطت الخروف وابتعدتْ ، فجاء الأسد وأكله .

في اليوم التالي ، ذهبت إلى السوق من جديد ، واشترتْ خروفاً آخر ، وذهبتْ إلى حيث الأسد ، واقتربت من عرينه أكثر مما اقتربت أمس ، وربطت الخروف ، فجاء الأسد وأكله .

صبيحة اليوم التالي ، ذهبتْ إلى السوق ، واشترت خروفاً

ثالثاً ، ومضت إلى الغابة ، عازمة أن تقترب من الأسد أكثر ، أخذتْ تمشي باتجاه عرين الأسد وهي تجر الخروف خلفها ، والأسد رابض يرمقها ، إلى أن وصلتْ إليه ، وتركت الخروف أمامه ، فقام وافترسه ، وهي واقفة تنظر إليه !

بعد أن شبع الأسد ، اتخذ وضعية كمن يريد النوم ، فاقتربتْ منه ، وأخذتْ تمسح على رأسه إلى أن سكن بين يديها كما يسكن طفل بين يديّ أمه!

ثم برفق نزعتْ شعرة من شاربه ، وعادت بها مسرعة إلى الشيخ !

قال لها الشيخ : أليس من العيب أن تنجحي في ترويض أسد وتفشلي في ترويض رجل !

احمرّ وجه المرأة خجلاً ، وعادتْ إلى بيتها وهي عازمة أن تبذل ما في وسعها لإصلاح ذات بينهما !

قسمة ثعلب

يُحكــى أنّ أســداً وثعلبــاً وذئبــاً ترافــقــوا في رحلة صـيد ، واتفـقـوا أن لا يأكلوا شـيئـاً من صـيدهم حتى يحين المســاء .

فـاصطادوا غـزالاً ووضــعـوه في مكان أمين ، ثم اصطادوا حماراً فحملوه وخبّأوه حيث خبأوا الغزال ، ثم ما كاد المساء يحلّ حتى اصطادوا أرنباً ، فحملوه وقفلوا راجعين حيث خبّأوا طرائدهم .

قال الأسد للذئب : اقسم بيننا هذه الطرائد

فقال الذئب : الغزال لكَ ، والحمار لي ، والأرنب للثعلب!

زأر الأسـد بغضبٍ ، وضـرب الذئب ضـربة شجّ له فـيـهـا رأسه ، وألقاه على الأرض صريعا مضرجاً بدمه .

ثم نظر إلى الثعلب وقال له : اقسم بيننا هذه الطرائد أيها الثعلب .

قـال الـثـعلب : الأرنب فطورك ، والغـزال غداؤك ، والحـمار عشاؤك!

فقال الأسد للثعلب : ومن علمك هذه القسمة العادلة أيها الثعلب .

قال الثعلب : علّمني إياها دم الذئب!

فضحك الأسد حتى استلقى على قفاه .

جبر

يُحكى أنّ رجلاً من العربِ يُدعى جبراً ، كان كثير الترحال ، يودّع مدينة ، ويستقبل أخرى ، وفي إحدى رحلاته دخل قرية ، ومرّ بمقبرتها فرأى أمراً عجباً !

رآهم قد كتبوا على شواهد القبور اسم الميّت ، وعمره ، وما زاد دهشته أنّ الأعمار كانت قصيرة جداً مقارنة بحجم القبور ، التي تبدو لأشخاص راشدين لا لأطفال خطفتهم يد المنون قبل أن يبلغوا سنّ الرّشد !

قرأ على شاهد القبر الأول : يرقد في هذا القبر سعد ، عاش سنة وثلاثة أيام!

قرأ على شاهد القبر الثاني : ترقد في هذا القبر سُعاد ، عاشت سنتين وأسبوعاً!

وكلما انتقل من قبر إلى قبر ، زادت دهشته ، حتى وصل إلى حارس المقبرة ، وقال له : لقد عشتُ رجباً ، ورأيتُ عجباً ، ولكني ما رأيتُ قط أعجبَ مما رأيته في مدينتكم !

ابتسم حارس المقبرة وقال له : لعلّكَ تقصد الأعمار

القصيرة المدوّنة على شواهد قبور النّاس!

قال جبر: أجل..

قال حارس المقبرة: نحن لا نحسب في أعمارنا إلا الأوقات السعيدة التي عشناها، فسعد مثلاً عاش خمسين عاماً، منها سنة وثلاثة أيام سعيداً، وما تبقّى من الخمسين قضاها في الشّقاء، فكتبنا ما عاش في السعادة، وأسقطنا من عمره ما عاش في الشقاء!

فقال له جبر: إن أدركني الموت في قريتكم فاكتبوا على شاهد قبري:

«يرقد في هذا القبر جبر، من بطن أمّه إلى القبر»!

دهاء زوجة

يُحكى أنّه في إحدى القرى الريفيّة كان الناس لا يعرفون حقد المدن وقسوتها ، يعيشون إخوة متحابين ، يتعاونون في الحراثة ، والحصاد ، ويقتسمون بينهم اللقمة ، تملؤهم الفرحة ، وتغمرهم البهجة .

وكان في القرية رجل غنيّ ، طيّب المعشر ، دمث الأخلاق ، يُقرض الناس ويصبر عليهم ، ويساعد المحتاج ، وإذا نزل بأحد سكان القرية مصاب ، عزّاه بنفسه وماله ، وإن نزل ببيت أحد أهل القرية ضيف ، أرسل لصاحب البيت أطايب الطعام ليكرم ضيفه !

وكان للغنيّ ثلاثُ بناتٍ شارفت أكبرهنّ على الثلاثين ولم يتقدم أيّ من شباب القرية لخطبة إحداهنّ ، على عكس أترابهنّ اللائي تزوجنَ في سنٍّ مبكرة ، كما هي حال الفتيات في القرى .

وفي ليلة صيفيّة مقمرة ، جلس الغنيّ وزوجته يتسامران في باحة الدار ، فقالت الزّوجة :

أيرضيكَ حال البنات ؟!

قال الغنيّ باهتمام : وما بهنّ ؟!

قالت : تزوّجت بنات القرية وأنجبن ، وها هي أكبر بناتك شارفت على الثلاثين ، ولم يتقدّم لها أحد !

قال لها : صحيح ، برأيك ما السبب ؟

قالت : والله ما أوقف حال البنات إلا ثروتك وغناك ، فإن الشاب إذا أراد أن يطرق بابك حدّث نفسه ، أو حدّثه أهله : ما ذنب البنت تنقلها من الغنى إلى الفقر ، ومن البيت الكبير إلى الكوخ الصغير !

ثم أردفت قائلة : أنتَ السبب . . . يجب أن تتصرف

قال لها بصوتٍ فيه شيء من الغضب : ماذا أفعل ؟ أأشتري لهنّ أزواجاً؟

ابتسمت الزّوجة وقالت : لا ، ولكن إذا كان يوم الجمعة فاذهب إلى إمام المسجد وقل له أن يخطب خطبة عن غلاء المهور ، وأنّ هذا لا يجوز ، وأنّ أكثر النساء بركةً أقلهنّ مهراً . ثم إذا انتهى الإمام من خطبته قف واثنِ عليه ، فيعرف النّاس أنّك لا تريد لبناتك أزواجاً أغنياء !

ذهب الغنيّ إلى إمام مسجد القرية وطلب منه أن يخطب خطبة عن غلاء المهور . . . وهكذا كان !

بعد أن انتهى الخطيب من خطبته وقف الغنيّ في المسجد وقال :

بارك الله بالشـيخ على هذه الخطبـة المبـاركـة ، علينا أن نتـعـامل بروح الإخـوة فـيـمـا بيننا ، كل النّاس لآدم وآدم من تراب ، والتفتَ إلى رجل وأشار إليه قائلاً : أبو عادل عنده بنات ويتـشـرّف بشـبـاب أهل القـرية على مـا هم عليـه ، وبيت أبي محمد مفتوح ، وبيت أبي خالد ، وبيتي ، يجبّ أن نُيسّر على شباب أهل القرية ليبسر الله على أولادنا ، والشاب لا تعيبه إلا أخلاقه ، والفقر لم يكن يوما عيباً ، كلنا أهل يا جماعة ، وكلنا أولاد تسعة !

ومـا هو إلا أسـبـوع حـتى زُفت البنات الثـلاث كلٌ إلى زوجها!

سيُغلق هذا البيت

يُحكى أنّ حكيماً من حكماء العرب كان مقصوداً محفوداً ، يحتكم إليه الناس في الخصومات ، ويستأنسون برأيه في الملمّات .

وكان الحكيم ذا مالٍ كثير يذلل به العقبات بين المتصالحين ، ويؤنس به المحتاجين ، غير أنَّ الذي رزقه رأياً راجحاً ، وعلماً نافعاً ، ومالاً وافراً ، لم يرزقه إلا ولداً واحداً ، أحسن تربيته وتأديبه مذ كان قطعة لحم طريّة إلى أن شبَّ رجلاً بين الناس !

وفي ذات يوم ، وبين متخاصمَين انصرفا ، ومتخاصمَين سيحضران ، جلس الحكيم شارد الذهن ، وأمارات الحزن بادية عليه ، فسأله ابنه :

ما بكَ يا أبتِ؟ وعلامَ أماراتُ الحزن بادية على محيّاك؟

قال الحكيم : أما إني حين أفكّر أني سأصير إلى التّراب ، وأنّ هذا البيت سيُغلق في وجوه المتخاصمين ، وليس مَن يقضي بينهم ، أحزن !

فقال ابنه : أطال الله عمركَ يا أبي ، وبعد عمر طويل أنا أقضي عنكَ بين الناس ، ولن يُغلق هذا البيت أبداً !

فقال له الحكيم : أي بُنيّ ، ما أنتَ فاعل إذا تخاصم عندكَ كريم وبخيل ؟

فقال الولد : آخذ من الكريم وأعطي البخيل ، فإنّ الكريم ينفقُ على النّاس من غير خصومة ، أفلا يرضى أن ينفق وقد صار خصماً !

تبسّم الأب ، وبدت علامات الإعجاب بولده على محيّاه ، ثم قال له من ثغر باسم :

أخبرني ماذا تفعل إذا تخاصم إليك بخيلان ؟

فقال : أدفع من جيبي وأصلح بينهما

فقال الأب وقد زاد إعجابه بابنه : ماذا تفعل إذا تخاصم إليكَ كريمان؟

فقال الولد : يا أبتِ . . . كريمان لا يختصمان ، وإن اختصما فساعة شيطان ، ثم يعود كلٌّ منهما إلى أصله ، فلا يحتاجان حكماً بينهما !

قال الأب : أنتَ ابن أبيك ، ومن أنجب مثلك ما ضرّه لو مات من ساعته !

الحكيم

يُحكى أنّ رجلاً قليل المال كثير العيال ، ذا حاجة ، قصد صديقاً له علّه يعينه على نوائب الدهر ، ويخفف عنه ما نزل به من فقر ، فاعتذر إليه صديقه قائلاً :

الحال كما ترى يا صاحبي ، فقد كانت سنة جدب ، وليس عندي إلا قوت العيال ، ولكن اذهب إلى فلان فإنه لا يردُّ سائلاً .

قصد الفقيرُ بيت الرجل فوجده يُداوي عنزة مريضة ، فقال في نفسه :

إنّ هذا الرجل على كثرة ماشيته لم يُفرّط في شاة مريضة ، وجعل يُداويها بنفسه ، لعمري إنّ صاحبي ما دلّني إلا على بخيل . وقفلَ راجعاً من حيث أتى .

عاد إلى صاحبه وأخبره الخبر ، فقال له صاحبه :

عُد إليه وسله فإنه لا يردُّ سائلاً !

عاد إليه فوجده يُوصي أولاده أن يلتقطوا كل حبة قمح تقع في الطريق أثناء ذهابهم إلى الطاحونة ، لجعل القمح طحيناً !

فقال في نفسه : إنّ رجلاً له كل هذا القمح ولا يفرّط بحبيبات قليلة تقع عن ظهور الدواب ، لعمري هو رجل بخيل لا يعطي أحداً شيئاً!

وقفلَ راجعاً من حيث أتى ، وحدّث صديقه بما رأى .

فقال له صاحبه كما في المرتين السابقتين : عُد إليه فإنه لا يردُّ سائلاً !

عاد الفقير إلى الرجل فسمعه يأمر أهل بيته أن يخفضوا ضوء المصباح كي يُحافظوا على «الكاز» فيه أطول مدة ممكنة !

وبينما هو يقول في نفسه : والله ما يزداد هذا الرجل إلا بخلاً .

إذ فتح الغني بابه ، ورأى الرجل ماثلاً أمام الباب !

فعاجله بالسؤال : ما أمرك ؟ هذه هي المرة الثالثة التي أراك فيها في هذه الناحية ؟

فقال الفقير : سأصدُقكَ القول ، نزلَت بي حاجة ، فقصدتُ صديقي فإذا به يشكو مما منه أشكو ، فأرشدني إليك ، وقال لي إنك لا تردُّ سائلاً . ولما أتيتُ إليكَ في المرّة الأولى وجدتك تداوي شاة مريضة على كثرة ما عندك من شياه ، ثم في المرة الثانية وجدتك تُوصي أولادك أن يجمعوا حبّات القمح التي تتساقط عن ظهور الدّواب في الطريق إلى المطحنة ، ثم ها أنت الآن توصي أهل بيتك أن يخفضوا ضوء المصباح ليوفروا زيته !

ولعمري إن نفسي حدثتني أنه لا يفعل هذا إلا بخيل !

ابتسم الغنيّ وقال له : أمّا الشاة فكانت قوية ، وقد شربنا من لبنها دهراً ، أفنتركها حين مرضتْ !

وأما القمح فأوصيتُ أولادي أن يجمعوا متساقطه لا طمعاً في القمح ، بل لأن المرء لا يعرف في أيّ طعامه جعل الله البركة !

وأما وصيتي لأهل بيتي بتخفيف المصباح لتوفير «الكاز» فإني رجل ذو بنات ، وإنّ بناتي لا شك مغادرات إلى بيوت أزواجهن ، ولعلّ إحداهن يقسم الله لها زوجاً فقيراً فلا يستطيع ما أستطيع أنا ، فأعلّمهم حسن التدبير !

ذُهل الفقير مما سمع ، وشعر لوهلة أنّه مدرسة ، لا أمام رجل من لحم ودم ، ووقف صامتاً كأنّ على رأسه الطير !

فانتبه الغني لذهول الفقير ، فأخذه من يده ، وأدخله بيته ، وقضى له حاجته !

اللي استحوا ماتوا !

يُحكى أنّه في زمن الدّولة العثمانية ، عرفت بلاد الشام الحمامات العامّة ، يحضر إليها الناس ليستحموا بمائها السّاخن ، وصابونها المعطّر .

وفي أحد الأيام ، شبّ حريق كبير في أحد الحمامات ، فخرج بعض النّاس على حالتهم هرباً من النّار ، بينما خجل آخرون أن يخرجوا عرياناً ، حتى أتت عليهم النار ، وماتوا احتراقاً !

ولما سُئل في المدينة : من مات ؟

قال رجل : «اللي استحوا ماتوا» فذهب قوله هذا مثلاً ، وما زال يردده أهل الشام .

اتقِ شرّ من أحسنتَ إليه

يُحكى أنَ حطاباً كان على فقره وقلّة ذات يده ، يعيش مع زوجته حياة هانئة وادعة ، ولم يكن ينغّصُ عليه عيشه إلا أنّه قد حُرِمَ الولد !

وكان يلحُّ على الله بالدعاء أن يقرّ عينه بولد ، ومضت السّنوات ، سنةً تجرُّ سنة ، والحطاب على ثقته بربه ، لا يمل من الدعاء ، ولا يكل من الرجاء ، ثمّ لما بلغ الخمسين من عمره شاء الذي يقول للشيء كن فيكون أن يقرّ عين الحطاب بالذريّة ، فحملت الزوجة وأنجبت ولداً طار فيه الحطاب فرحاً .

ومضت السنون ، وشبَّ الولد ، ولما بلغ عشرين سنة كان الوالد قد بلغ السبعين ، ونام على فراش الموت ، وقال لابنه يوصيه :

أي بُني ، إن الغدر شيمة في بني الإنسان ، فأحسن إلى كل المخلوقات وكن على حذرٍ من الناس ، وتذكر دوماً أن تتقي شرّ من أحسنتَ إليه !

فاضتْ روح الحطاب إلى بارئها ودفنه ابنه .

وفي أحـد الأيام ، وأثناء عـودته من جـمع الحطب في الغابة ، رأى حيّة مضرجة بدمها وتكاد تشرف على الموت ، فحملها معه وأخذ ينظف جرحها ويعتني بها إلى أن استردّت عافيتها ، وشكرته على إحسانه ، وأعطته شعرة وقالت له :

إن أنتَ احتجتَ إليَّ أحرق هذه الشعرة آتيكَ سعياً حيثُ كنت ، واسـأل الله أن يُقـدرني على ردّ مـعـروفك وحـسن صنيعك!

ومضتْ الأفعى في حال سبيلها .

مرّت الأيام ، نهار يطويه ليل ، وليل يطويه نهار ، والحطاب منكب على عـمله يقطع الأشـجار ، ويبـيع حطبـهـا للأفـران ويعتاش .

وحـدث أنّه ذات مسـاء وهو عـائد إلى بيتـه ، سمع أنين إنسان ، مشى وراء الصوت فرأى إنسانا مضرجاً بدمائه ، فقرر أن يساعـده ، ولكنّه لحظتـذاك تذكّر نصيحة أبيه يوم حذّره من الإحسان للناس ، ولكنه قال في نفسه :

إن لم يكن هذا الجريح أهلاً للمعـروف فأنا أهله ! لو كـان أبي حيّاً ما قَبِل أن يترك الرجل على هذه الحال .

فحمله إلى بيته وأخذ يداويه إلى أن تعافى وعاد سيرته الأولى .

طلب الرجل من الحطاب أن يسمح له أن يقيم عنده ريثما

يتدبّر أموره ، ووعده أنّه سيكون ضيفاً خفيفاً ، ونزيلاً أليفاً ، فقبل الحطاب .

وحدث ذات نهار أنّ ابنة الملك كانت جالسة على الشرفة ، فجاء طائر وأخذ بعض حُليّها وطار به وألقاه فوق بيت الحطاب ، والناس ينظرون لما فعل الطائر ، ونقلوا للملك مكان حُليّ الأميرة .

وصادف وقتذاك أن الحطاب كان خارج البيت ، فما كان من الضيف إلا أن أخذ ما ألقاه الطائر من حُليّ الأميرة وأخفاه!

قال الملك لأعوانه : انتظروا قليلاً لعلّ الحطاب يعيد الحُليّ بنفسه .

انتظر الملك ثلاثة أيام ، فلا حطاباً ظهر ، ولا حُليّاً عادت ، فأمر قائد العسكر أن يقبضَ عليه!

اندهشَ الحطاب لحضور الشرطة إلى بيته ، وسأل قائد العسكر باستغراب :

ولمَ تقبضُ عليّ؟

فأجاب : لأنّك لص وسارق

قال : ما سرقتُ لكم شيئاً

لحظتذاك قال الضيف : أنا أريد أن أتكلّم ، ولكني أخاف بطش الحطاب ، فأعطِني الأمان يا قائد العسكر!

قال القائد : لكَ الأمان والحماية ، فقل

دخل الضيف المنزل وعاد حاملاً حُليّ الأميرة وقال :

لقد ألقى الطائر هذه هنا فأخذها الحطاب ، وقد حاولتُ أن أمنعه ولكنه ما استمع نصحاً ولا قبل رأياً ، وغرّته الحياة الدنيا ، وخان أمانة الملك!

اقتادوا الحطاب المسكين إلى السجن ، وقضى الملك أن يُجلد الحطاب على مرأى أهل البلد ثم يُطرد من البلاد .

تذكّر الحطاب صديقته الحيّة ، فأخرج الشعرة وأحرقها ، فأتته الحية تسعى كما وعدته إن احتاج إليها أن تفعل!

أخبر الحطاب الحية بالأمر ، فقالت له :

أنا سأخرجكَ من هذا الأمر كما أدخلكَ صديقك الغادر فيه! سألفُّ على رقبة ابنة الملك ولن أتركها حتى تأمرني أنتَ بذلك!

ذهبت الحيّة إلى حيث الأميرة ، ولفّت نفسها على رقبتها حتى كادت تختنق ، أحضر الملك الأطباء والسحرة ومربي الأفاعي ولكنهم جميعاً عجزوا عن فك الحية عن رقبة الأميرة ، خصوصاً أنهم قد خافوا إن استخدموا العنف أن تقتل الحيةُ الأميرة!

سمع الحطاب من حرّاس السجن بما جرى ، فأخذ يطرق الباب بقوة ويقول : أنا أفك الأميرة فأخرجوني أريد مقابلة الملك!

أخرجوه واقتادوه إلى الملك ، فقال الحطاب :

أنا أُخلّص الأميرة مما هي فيه ولكن عليكَ أيها الملكُ أن تُنفّذ شروطي!

فسأله الملك باهتمام : وما شروطك؟

قال الحطاب : أولاً . . لا يتعرض أحد للحية بأذى بعد أن تترك رقبة الأميرة .

ثانياً : أن تصدقني في قصتي التي سأخبرك بها ، وإني والذي جمعنا بلا ميعاد ما أكذبك حرفاً قط !

ثالثاً : أن تزوجني ابنتك!

لم يجد الملك بُداً من القبول بشروط الحطاب .

اقترب الحطاب من الحيّة ومسح عليها فتركت الأميرة وخرجت تسعى خارج القصر دون أن يتعرض لها أحد .

بعد ذلك أخبر الحطاب الملك قصته ، وكيف خان وصيّة والده وأحسن لإنسان ، وأقسم أنّه لا علم له بأمر الحُليّ . فطلب الملك أن يُحضر الضيف ويُلقى في السجن

وتزوج الحطاب ابنة الملك وعاشا في سعادة وهناءة .

الأمين والمأمون

يُحكى أنّ هارون الرشيد جلس في شرفة قصره ذات ليلة يُسامر زوجته زبيدة ، فأخذت تمدح ولدها الأمين ، وتعدد صفاته ومآثره ، وتثني عليه بالنباهة ، والشجاعة ، وعلو الهمة .

فقال لها الرشيد : إنّ ما تذكرين لهيَ صفات المأمون لا صفات الأمين .

فحدث بينهما جدال ، وأصرّت زبيدة أنّها صفات الأمين ، في حين أصرّ الرشيد على أنّها صفات المأمون .

فقال الرشيد : سأريك إذاً !

في الليلة التالية ، دعا الرشيد ولديه الأمين والمأمون إلى مجلسه ، وأخذ يسامرهما حتى حلّ منتصف الليل ، فطلب أن ينفضّ المجلس .

ذهب كلٌّ في سبيله ، وما كادت تنقضي ساعة حتى دعا الرشيد زبيدة ، فلما حضرت بين يديه ، نادى حاجبه وطلب منه أن يدعوَ له الأمين والمأمون!

بعد قليل دخل الأمين في زينته ، يلبس ناعم الثياب ،

وتفـوح منه رائحـة الطيب ، ثم دخل المأمـون بلبـاس الحـرب ، متقلداً سيفه ، ومتكئاً على رمحه!

فقال له الرشيـد : ما حملكَ على أن تأتي مجلسي وأنت بلباس الحرب ؟

فـقـال المأمـون : يا أبتِ قـد كنتُ في مـجلسك منذ وقت قليل ، ولو كنتَ وقـتـهـا تريدني في أمـر لأخـبـرتني ، فلمـا استدعيتني في الليل ، وكان عهدي بكَ قريباً ، قلتُ لعلَّ أمراً قـد حـدث ، فتجـهّـزتُ فلعللكَ أردتني بأمر عـاجل فـلا أضيع الوقت ، وإن لم يكن أمـراً ذا بال فـإن نزع السـلاح من أيسـر الأشياء !

فنظر الرشيد إلى زبيدة وضحك !

دهاء الأمير

يُحكى أن رجلاً أراد السفر ، فجمع ماله ووضعه أمانة عند تاجر في السوق ، على أن يردّه له فور عودته من سفره .

مضت الأيّام . . شمسٌ تشرق وأخرى تغيب ، ليل يطويه نهار ، ونهار يطويه ليل ، وعاد الرجل من سفره ، وقصد التاجر ليسترد أمانته ، ولكنّ التاجر أنكرها ، وقال له : لم تضع شيئاً عني .

حار الرجل في أمره ، ونصحه بعض معارفه أن يقصد القاضي لعلّه ينصفه .

ولكنّ أباه الذي علّمته الحياة كثيراً ، وكست شعره بالبياض ، وعقله بالحكمة ، قال له :

أي بُني ، إنّ البيّنة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر ، وليس معكَ بيّنة ، ومعه يمينه! وهذه خطوة لا طائل منها ، فأرى أن تذهب للأمير علّه ينصفك .

قصد الرجل مجلس الأمير ، واستأذن الحاجب بالدخول على الأمير فأُذِن له .

وقـف بين يدي الأمـيـر ، وقصّ عليـه قـصّـتـه ثم أردف قائـلاً :

وإني يا مولاي ما قصدتُ القاضي إلا لأني لا أملكُ بيّنة ، وليس معي إلا الله شاهداً وكفى بالله شهيداً ، وقد تقطّعت بي السُبل ، ونفـدت مني الحـجج ، وليس لي غـيـرك بعـد الله ينصفني !

قال له الأمير : إنّ صاحبك محتال ولا بدّ معه من حيلة .

فـاذا كـان الصبـاح ، اذهب وقف بباب دكـانه ، وسأمرُّ أنا بحرسي وحاشيتي ، وسأسلّم عليك ، وأعاتبك لأنك لا تزور مجلسي ، فلا تعرني اهتماماً!

صبيحة اليوم التالي ، ذهب الرجل ووقف بباب دكّان التاجر كما طلب منه الأمير .

وما هو إلا وقت يسير حتى أقبل الأمير في موكب مهيب ، جند وحـرس وشـرطة وخيول ، ولما رأى الأمـيـر الرجل نزل عن فرسه وعانقه عناق الأصدقاء ، وقال له :

كـيف حـالك يا صديقي ، وما أخبـارك ، بي عتبٌ عليكَ أنك لا تزور مجلسنا كسابق عهدك ، فحرمتنا جمال صحبتك ، ومتعة حديثك .

قال له الرجل : عندي مشاغل وهموم يا صديقي ، ولا أجد وقتاً لزيارتك ، ولكن أعدك إن وجدتُ فسحة في وقتي فإني سأزورك!

حدث هذا والتاجر مشدوه ، والخوف يسري منه سريان الدم في العروق .

وما كاد لقاء الصديقين ينفضّ ، وموكب الأمير يمضي ، حتى هرع التاجر إلى الرجل ، وقال له :

هذه أمانتك ، وسألتك الله والرحم ألا تخبر الأمير بما كان بيننا .

فأخذ الرجل أمانته ومضى !

احلق له لحيته !

يُحكى أنّ طائراً في عهد سليمان عليه السّلام ، قصد غدير ماء ليشرب ، فرأى هناك صبية صغاراً يلعبون ، فقال في نفسه :

والله لا آمن على نفسي من عبث الغلمان ، فإني ماكث مكاني ومنتظر ، فإذا انفضّ جمعهم ، وتفرّق شملهم ، أتيتُ الغدير فشربتُ حتى ارتويتُ .

وما هو وقت قصير حتى غادر الغلمان الغدير ، وما كاد ينصرف آخرهم ، حتى نزل بالغدير شيخٌ له لحية طويلة ، تبدو عليه علامات الوقار ، فقال الطائر في نفسه :

لا خطر عليّ من هذا الشيخ الجليل ، فإن له لحية لا تكون إلا للكهان الزهاد العبّاد .

فوردَ الماء ليشرب ، فما كان من الشيخ إلا حمل حجراً ، ورمى به الطائر ، ففقأ عينه ، وفرّ شاكياً باكياً لنبي الله سُليمان .

أمر سُليمان أن يحضر الشيخ والطائر بين يديه ، ولما استمع من الخصمين ، أمر أن تُفقأ عين الشيخ جزاءً لما فعل .

ولكن الطائر قال : يا نبيّ الله دع عينه فلا ذنب لها ، واحلق له لحيته ، فوالله ما جعلني آمن مكره ، وأنزل في حماه إلا هي !

يا أصلع

يُحكى أنّ أصلعاً أشبع غلاماً ضرباً ، فشكاه أهل الولد إلى القاضي .

ولما جِيء به إلى مجلس القاضي ، سأله :

لمَ ضربتَ هذا الوالد ؟

قال الأصلع : صلِّ على النبيّ !

قال القاضي : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد

قال الأصلع : زدّ النبيّ صلاةً

فقال القاضي : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد

قال الأصلع : زدّ النبي صلاة أخرى

فقال القاضي وقد بدت عليه علامات الغضب :

اللهم صلِّ على محمد وآل محمد

فقال الأصلع : يا سيدي القاضي ، طلبتُ منك أن تصلي على النبي ثلاثاً فغضبتَ وكدتَ تفتكُ بي !

فما بالك بي ، وهذا الغلام كلما مررتُ به ، ترك ما في يده وتبعني يناديني ، يا أصلع . . . يا أصلع !

فكتمتُ غيظي أياماً ، ثم لما ما عدتُ أطيقُ صبراً أمسكته فضربته !

ضحك القاضي وقال لأهل الولد : من لم يؤدبه أهله أدّبه الناس!

وخلّى سبيل الأصلع .

الطبيب

يُحكى أنّ طبيباً أراد الله أن يجري على يديه شفاء الناس ، فعلّمه ما لا تعلمه المدارس ، وشرح له صدره وقلبه ، فكان يصنع الأدوية ويضعها في قوارير ، ويضع القوارير على رفوف حيث يستقبل مرضاه .

وقد زاده الله تكريماً أنّ المريض كان إذا دخل عليه اهتزّت على الفور زجاجة من زجاجات الدواء ، فعرف الطبيب علاج المريض قبل أن ينبس ببنت شفة!

فيناوله الدواء ، فيبرأ المريض بإذن الله .

ذاع صيتُ الطبيب ، وقصده الناس من كل حدب وصوب ، فمن كان قريباً أتاه مشياً ، ومن كان بعيداً حمل زاده ووجعه وارتحل إليه !

وبقي على هذه الحال ردحاً من الزمن ، كلما دخل مريض اهتزّت قارورة دواء .

وحدث ذات يوم أن مريضاً يشكو وهناً في جسمه ، واصفراراً في وجهه ، وانخفاضاً في وزنه ، عاينه الطبيب ، ونظر

إلى الرّف ، ولكن الزجاجات كلها بقيت هادئة على حالها لا تتحرك ولا تهتز !

فقال له الطبيب : دواؤك ليس عندي!

خرج المريض من عند الطبيب موقناً بالهلاك ، فالطبيب الماهر الذي يعطي الدواء الشافي عند أول معاينة ، عجز أن يعطيه دواءه !

اهتمّ الرجل واغتمّ ، واعتزم أن يرتحل ليموت في البريّة بعيداً عن أهله ، فقد كره أن يفجع أحداً فيه !

مشى الرّجل في البريّة ومشى ، إلى أن أنهكه التّعب ، وبلغ منه الجوع والعطش مبلغاً ، فأسند ظهره إلى جذع شجرة هرمة ، وأخذ ينتظر الوقت المحتوم .

وبينما هو على هذه الحال إذ مرّ راع يسوق قطيعه أمامه ، فنظر إليه ، ورقّ له قلبه ، وقال في نفسه : إنّ الجوع قد بلغ من هذا المسكين مبلغاً . فأخذ شاة كبيرة الضرع وأراد أن يحلب له ويسقيه ، ولكنّه لم يجد معه وعاءً ، فنظر يمنة ويسرة ، فرأى هيكلاً عظميّاً لإنسان كان قد أدركه الموت في ذلك المكان ، فأخذ الراعي الجمجمة وحلب بها حتى امتلأت ، ووضعها أمامه ومضى في طريقه .

أراد الرجل أن يمدّ يده ليشرب ، ولكن أفعى خرجت من بين الصخور وسبقته إلى الحليب ، فشربته كلّه ، فأمسك حجراً يريد أن يضربها ، ففزعت وقاءت كلّ ما شربته من حليب في

الجمجمة من جديد !

نظر الرّجل إلى الحليب وقد اختلط بالسمّ ، فقال في نفسه :

إني ميت لا محالة ، وإنّ الموت على شبع أرحم من الموت على جوع ، وشربه حتّى آخره ، وأغمض عينيه ، وانتظر خروج الروح !

وكم كانت دهشته عظيمة حين فتح عينيه ليجد أنّه نام الليل بطوله ، وأنّه لم يعد يحسُّ بالوهن الذي كان يحسُّ به ، فأخذ يقرص نفسه ليتأكد أنّه ليس في حلم ، ولمّا ذهب عنه الذّهول ، قام ومشى حتى وصل إلى غدير ماء فشرب منه ، ثم نظر إلى انعكاس وجهه على مرآة الماء ، فلاحظ أن لون وجهه لم يعد أصفر كما كان ، وقفل راجعاً إلى الطبيب ، ولما وصل إليه قال له بصوت مِلؤُه العتب : كيف قلتَ أن لا دواء لي ؟

قال له الطبيب : لم أقل لا دواء لكَ ، إنما قلتُ : دواؤك ليس عندي . فإن دواءكَ أن تشرب لبن شاة بكر ، ممزوج بسم أفعى بكر ، في جمجمة فتاة بكر! ومن أين أحضر لك هذه الأشياء ، فأخبرني كيف أحضرتَ دواءك!

قصَّ الرجل على الطبيب قصّته ، فاندهش الطبيب ، وقال للرجل :

إنّ ما يعجز عنه طبيب الأرض لا يعجز عنه طبيب السّماء ، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء .

سُمعة تاجر

يُحكى أنّ تاجراً قصد سوق عكا لكثرة ما سمع عن الرّبح الذي يُحققه التّجار هناك ، فباع ما تحمله دوابه ، وما كادت شمس ذاك النهر تودّع وهج الاحمرار ، حتى كان قد ربح خمس ليرات ذهبيّة .

فرح التاجر الغريب أيما فرح ، ولكنه قال في نفسه :

إن أنا عدتُ أدراجي حاملاً هذا المال ، فسيوقفني قطّاع الطريق ، ويسلبوني إيّاه !

نظر حوله فرأى تاجراً تبدو عليه علامات الوقار ، تمرُّ به الناس وتحييه ، فذهب إليه وطلب منه أن يترك المال أمانة عنده .

وافق التّاجر الوقور على حفظ أمانة الغريب ، وافترقا على أن يحضر مرّة أخرى ليأخذ أمانته .

بعد مدّة حضر التّاجر الغريب ليأخذ ماله ، ولكنه كان قد نسيَ ملامح التاجر الوقور ، وأضاع مكان دكّانه ، فأخذ يجوب السوق جيئة وذهاباً ، إلى أن رأى تاجراً أشبه ما يكون بصاحبه ، فظنّ أنّه هو ، فدخل عليه وهو جالس بين تجارٍ

يبيعهم ويشتري منهم ، وقال له :

كنتُ قد وضعتُ عندكَ خمسَ ليراتٍ ذهبيّة أمانة ، وها قد جئتُ لأستردّها !

نظر التاجر إليه وابتسم ، وفتح كيس نقوده ، وناوله خمس ليراتٍ !

مضى التاجر الغريب في طريقه ، فإذا به أمام دكّان الرجل الذي ترك أمانته عنده ، فتعجّب كيف أن التّاجر الأول أعطاه المال ، رغم أنّه لم يترك عنده شيئاً !

دخل على التاجر وسلّم عليه ، فعرفه وأعطاه ماله .

عاد التاجر الغريب إلى التّاجر الأول الذي أعطاه ليرات لم يضعها عنده دون أن يجادله أو يحاججه !

وجده في دكانه وحده ، فدخل وسلّم عليه ، ثم قال له :

لقد رأيتُ من أمرك اليوم عجباً ، إني وضعتُ نقودي أمانة عند تاجر في السوق ، ولما حضرتُ اليوم لأستردها ، ظننتكُ هو ، فطالبتك بمالي ، فأعطيتني إياه ، ثم إني سرتُ في طريقي ، فإذا أنا أمام صاحب القديم ، فلمَ أعطيتني ما لم أتركه عندكَ ، ولم تحاجج أو تجادل !

ابتسم التاجر وقال له : إنّك قد أتيتني وأنا بين تجار ، وطالبتني بأمانتك ، وإني لو قلتُ لكَ وقتها لا أمانة لكَ عندي ، فأنا عند النّاس أحد شخصين : إما غادر لا يُؤتمن ، أو من أحسن الظن بي فسيرتاب مني .

وما التّاجر في السّوق إلا «سُمعة» ، فوجدتُ أنّه أربح لي أن أشتري سمعتي بخمس ليرات!

ردّ التاجر الغريب للرجل ماله ، ومضى في طريقه متعجباً من فقه بعض الناس !

النبيّ سُليمان والنملة

يُحكى أنّ نبي الله سُليمان رأى نملة تسحب حبّة قمح ، فأعجبه كيف أنها على صغر حجمها تحمل أضعاف وزنها!

فسألها : كم حبة تأكلين في العام ؟

فقالت : آكل حبّتين يا نبي الله!

فحملها ووضعها في صندوق ، ووضع معها حبتي قمح .

ولما انقضى العام فتح نبي الله سليمان الصندوق ، فوجد النملة قد أكلت حبة قمح واحدة فقط!

فقال لها : ألم تقولي لي أنكِ تأكلين حبتي قمح ، فما لي أراكِ قد أكلتِ حبة واحدة فقط؟!

قالت النملة : يا نبي الله ، إني حين كنتُ في الفلاة كان رزقي عند الله ، وكنتُ واثقة أنّ الله لن ينساني ، ولما صار رزقي عندك خشيتُ أن تنساني فاقتصدتُ !

فتبسّم نبي الله سُليمان من فقه النملة .

أنتَ غنّيتَ وأنا طربتُ

يُحكى أنّ جملاً وحماراً هربا من صاحبهما إلى إحدى البراري حيث الكلأ والماء ، ولبثا دهراً يأكلان غضّ العشب ، ويشربان عذب الماء ، فزالت عنهما آثار الكدر والشقاء وتحسنت صحتهما .

ثم في أحد الأيام ملأ الحمار بطنه عشباً ، واستظل شجرة وقال للجمل :

أريد أن أغني !

فقال له الجمل :

قد علمتَ أنّ رجال السلطان يأخذون الدواب الشاردة للسُّخرة ، فإذا سمعوا صوتك فسيعثرون علينا ونعود سيرتنا الأولى في الكد والشقاء .

فقال الحمار بعناد : أريدُ أن أغني !

قال له الجمل : أما إني لا أراك إلا قد بطرتَ وكفرتَ بنعمة الله .

نهقَ الحمار وترنّم فسمعتْ دورية رجال السلطان صوته ،

فاستدلوا عليهما ، وأخذوهما للأعمال والأحمال ، سخرة طول النهار مقابل حفنة تبن يابس وشربة ماء!

وفي أحد الأيام تظاهر الحمار بالتعب ، ورفضَ أن يمشي رغم الضرب والشتم اللذين كالهما له رجال السلطان ، ثم بعد أن يئسوا منه لم يجدوا بداً أن يحملوه على ظهر الجمل!

استشاط الجمل غضباً ، والجمل معروف أنّه لا يترك له عند أحدٍ ثأراً ، فقال له بغضبٍ :

أتدري يا صاحبي الحمار ، لقد اشتقتُ لصوتك الطروب ، وغنائك العذب ، فغنِّ لي !

سُرّ الحمار وانفرجت أساريره ، وعلا نهيقه ، فحرّك الجمل ظهره وكأنه يرقص فوقع الحمار على الأرض وتكسّرت أطرافه وقال وهو يئن :

لمَ أوقعتني ؟

فقال له : أنتَ غنّيتَ ، وأنا طربتُ فرقصت !

أنا إن شاء الله

يُحكى أنَّ رجلاً طلبت منه زوجته أن يشتري لها لحماً من السوق

فقال لها : سآتيكِ به بعد قليل

قالت له : قل إن شاء الله

فقال لها : ولمَ أقول إن شاء الله ، المال في جيبي ، والسوق قريب !

ومضى في طريقه يريد السوق ، ولما وصل إليه غافله أحد اللصوص ، وسرق ماله !

ولما وصل إلى حانوت الجزَار ، تحسس جيبه فلم يجد ماله! فعرف أنها فعلة اللصوص ، وعاد إلى بيته يجرُّ أذيال الخيبة !

وصل إلى بيته وطرق الباب ، فنادت زوجته : من ؟

قال : أنا إن شاء الله !

دهاء ثعلب

يُحكى أنّ ثعلباً دخل حظيرةَ يريدُ السطو على بعض دجاجها ، فأحسّ به صاحب الحظيرة ، وأغلقَ عليه بابها وذهب ليحضر فأسه!

اصفرّ وجه الثعلب ، وارتعدت فرائصه ، ولكنه استجمع قواه وقال في نفسه : هذا ليس أوان الخوف ، فإن كان الجوع أوردكَ فالدهاءُ منجيك!

وتوجّه من فوره إلى الثور وقال له :

أيها الثور المظلوم ، ذو الحق المهضوم ، والحظ المشؤوم ، ألا ترى أن صاحبكَ اتخذكَ للحراثة والفلاحة وإخوتك الثيران في البراري ينعمون برغد العيش وأنت تعاني الإهانات وذلّ السّياط !

قُم ارفص هذا الباب ودعنا نخرج!

فقال الثور : دعكَ مني ، فإنّ صاحبي غليظ القلب وقد كسر قرني العام الماضي ولا أريدُ هذا العام أن أُذبحَ وأُباع في القرية ، اذهبْ إلى غيري!

نظر الثعلب حوله فرأى الحمار ، وقال له :

أيها الحمار المسكين ، تعمل وتسعى ، وتكد وتشقى ، فلا تلقى لين جانب صاحبك ، قم وارفص هذا الباب ودعنا نخرج .

فقال له الحمار : خُلقتُ للعمل والركوب فدعكَ مني!

نظر الثعلب حوله ثانية فوجد بغلاً فتقدم نحوه وحيّاه بأحسن ما تكون التحايا ثم قال له : أتترك المراعي لحفنة تبن ، وما زال يحدّثه ويغريه ، ويزيّن له الهروب حتى قام ورفص الباب فإذا هو أثرٌ بعدَ عين!

هربت الحيوانات ، وقادها الثعلب إلى الغابة ، فتناهى خبر القادمين الجدد إلى مسامع الأسد ، فحضر غاضباً وقال للثعلب : كيف تجرؤ أن تدخل مملكتي دون إذني؟!

فقال له : أيها الملك سمعتُ أنّك مريض وقد أحضرتُ لكَ وصفة تشفيك!

فقال الأسد : قُل!

فقال : هي مكتوبة على حافر البغل وأنا لا أجيدُ القراءة كما تفعل الملوك!

لحظتذاك تقدم البغل ورفع حافره فأنزل الملك رأسه يريد أن يقرأ فلبطه البغل لبطة طرحته أرضاً وانهال عليه ضرباً ولبطاً !

انقضّ الثعلب وعضّ الأسد فقال الأسد متألما : حتى أنتَ أيها الثعلب!

فقال الثعلب : الثعالب مع «الحيط الواقف»!

أردتُكَ أسداً يُعطي لا ثعلباً يأخذ

يُحكى أنّ تاجراً كان كثير المال قليل العيال ، له مال كثير وولد وحيد ، مدلل كسول ، يبدد المال يمنة ويسرة ، في وجهه حيناً ، وفي غير وجوهه أحياناً .

حار الأب في شأن ابنه ، وأراد أن يجعله يتحلى بالمسؤولية ، فهو ابنه الوحيد ولا شكّ أن كل هذا المال الذي جمعه في سنين عمره ذاهب إليه ، وقد عزّ عليه أن يرى جهد عمره يذهب أدراج الرياح !

ففكر ودبّر ، ثم اهتدى إلى طريقة ظنّ أنها الأنجع بإعادة ولده إلى جادة الصواب ، فقال محدّثاً نفسه :

إن أنا أرسلته على رأس قافلة للتجارة ، ووضعتُ له من يرقبه ويعاونه فلا شك أنّه سيشعر بذاته ، ويعرف قيمة العمل ، وقيمة أن يكون الإنسان منتجاً ، ويأكل من كدّ يده ، وأنّه إن شقيَ وتعب في إحضار المال لم يستهن في تبديده !

حدّث ابنه بالأمر فراقت الفكرة له ، وحزم متاعه وارتحل على رأس القافلة للتجارة .

ما كاد مساء ذاك اليوم يحلُّ حتى كانت القافلة قد قطعت مسافة طويلة ، وأُصيب الرّجال والدّواب بالتعب ، فنزلوا للمبيت كما هي عادة القوافل .

ناموا ليلة هانئة هادئة ، افترشوا فيها الأرضَ والتحفوا السماء ، والولد مشدوه لمنظر الطبيعة ، وليل الصحراء الأخاذ !

في الصباح الباكر ، وبينما كانت القافلة على وشك المسير ، رأى الولد عجباً ، رأى أسداً يأتي باب كهف ويضع أرنباً قد اصطاده ، ويمضي في سبيله !

بعد قليل خرج من الكهف ثعلب أعمى ، أخذ يتحسس طريقه حتى وصل إلى الطريدة ، فأكلها ، ثم عاد إلى الكهف !

قال الولد في نفسه : لقد قسم الله لكل مخلوق رزقه ، فعلامَ يكدُّ الناس ويشقون؟! وإنّ الذي لم ينسَ ثعلباً أعمى ، لن ينسى إنساناً مبصراً ، وطلب من القافلة أن ترجع أدراجها !

استغرب الأب عودة ابنه ، وسأله عن السبب .

فقال الولد : يا أبتِ ما حملني على الرجوع إلا أني رأيتُ عجباً !

قال الأب : خيراً رأيتَ يا بُني ، فحدّثني .

قال : يا أبتِ ، رأيتُ أسداً اصطاد أرنباً ، ثم وضعه أمام كهف ثعلب أعمى ، يا أبتِ ، فلمّ الكدُّ والعمل ، وكل آتيه رزقه!

ابتسم الأب وقال : يا بُنيّ إن الله يسوق لكل مخلوق

رزقه ، ولكني أردتكَ أسداً مبصراً يُعطي ، لا ثعلباً أعمى يأخذ !

فهم الولد مُراد الأب ، وعزم على الجد والعمل ، وأقسم أن لا يعود سيرته الأولى .

حمار الطاحونة

يُحكى أنّ أحد الولاة كان يتفقّدُ أحوال الرّعية ، فمرّ بطاحونة ، وشاهد حماراً مربوطاً إلى حجر الرّحى ، ويدور فيدور معه الحجر فيطحن الحَبَّ ، وقد علّق صاحبه برقبته جرساً !

تعجّب الوالي من فعل الرجل ، وطلب حضوره بين يديه ، وطلب من مرافقيه أن يحضروه .

ولما حضر بين يديه ، سأله : لمَ علّقتَ جرساً برقبة الحمار؟!

قال الرّجل : عندي عمل كثير ، ولا أستطيع أن أجلس أراقب الحمار يعمل ، وقد علّقتُ الجرس في رقبته فما دمتُ أسمع رنين الجرس فهذا يعني أنّ الحمار يدور ، ويدور معه حجر الرّحى ، وتُطحن الحبوب!

فقال الوالي : ماذا لو توقّف الحمار عن الدّوران ، وأخذ يحرّك رقبته والجرس يرنُّ

فقال الرجل : أكرمك الله يا سيدي الوالي ، لو كانت هذه الفكرة تخطر بباله لما كان حماراً ، بل كان والياً للمدينة !

صار الثّعلب يربط والفأرة تفكّ

يُحكى أنّ أسداً حكم غابةً حُكمَ الملوك ، فكان يصولُ ويجول ، يعطي ويمنع ، يعفو ويعاقب ، واستمر على هذا الحال ردحاً من الزمن إلى أن وجد في نفسه مللاً ، وفي خاطره كدراً ، فحدّث نفسه قائلاً :

لقد أفنيتُ عمري في هذه الغابة أدبّر أمور الرّعيّة ، وأقضي بين المتحاكمين ، وأصلحُ بين المتخاصمين ، لقد عشتُ للقوم ونسيتُ أن أعيش لي ! وإنه لمن ظلم النفس أن أموت وأنا لا أعرف من ظهر هذه البسيطة إلا هذه الغابة !

ثم قرر أن يرتحل ، وهكذا كان . . .

قادته خطاه إلى بريّة واسعة ، ما إن وصلها حتى بلغ منه العطشُ والتعب مبلغاً ، فشرب ماءً عذبا من غدير قريب ، وجلس تحت شجرة وارفة يستظل ، فمرّ ثعلب من هناك وألقى عليه التحيّة ، فردّ الأسد تحية الثعلب بأحسن ما يكون رد التحايا .

ثم إن الثعلب قال للأسد : أترى هذا الحبل الذي معي ، فإني أريدك أن تربطني به إلى هذه الشجرة ، فإني أريد أن أرى كيف تربطُ الملوك !

فما كان من الأسد إلا أن أخذ الحبل وبدأ يلفه حول الثعلب بقوة حتى كادت عظامه تختلط بجذع الشجرة وهو متصابرٌ متظاهر بالقوة ورباطة الجأش وعدم الاكتراث .

ولما انتهى الأسد قال للثعلب : أرأيتَ كيف تربطُ الملوك ؟!

قال الثعلب : أجل رأيتُ .

ثم أردف قائلاً : الآن دوري أيها الملك ، فكّنِي لأريكَ كيف تربطُ الثعالب !

أخذ الثعلبُ الحبل وانبرى يلفه حول الأسد بإحكام حتى أصبح كأنه مصلوب لا مربوط ثم تركه على هذه الحالة ومضى !

زمجر الأسد وزأر ، وهدد وتوعد ، وأزبد وأرعد ، والثعلب ماضٍ في طريقه لا يلتفتُ إليه!

وصادف مرور فأرة صغيرة رأت الأسد على هذه الحال فقالت له : أتريدُ المساعدة أيها الملك؟!

فقال لها الأسد : وما يفعل من كان بصغر حجمك وواهن قوّتك؟!

فقالت الفأرة : إن الله يضع سرّه في أضعف خلقه ، وبدأت تقرض الحبل حتى تحرر الأسد . فشكرها شكراً كثيراً ثم مضى يعدو . . .

فقالت له : إلى أين أيها الملك؟

قال : إلى غابتي ، لا مقام لي في أرضٍ الثعلبُ فيها يربطُ والفأرة تفك!

وزير سُليمان

يُحكى أنّ ملك الموت كان صديقاً لنبي الله سُليمان ، وكان يزوره في مجلسه على هيئة رجل ، وبهذا يأنس بمجلس سُليمان دون أن يهابه الناس .

وحدث مرّة أن دخل ملك الموت على نبي الله سُليمان ، وكان أحد وزرائه عنده ، فأخذ ملك الموت يُحدّق بالوزير وأمارات العجب بادية على وجهه!

ثم ترك المجلس وانصرف!

سأل الوزير نبي الله سُليمان عن هذا الرجل الذي كان يُحدّق فيه ، فأخبره نبي الله سليمان أن هذا الرجل هو ملك الموت !

ارتعدت فرائصه ، وتفككت أوصاله ، وقال لنبي الله سُليمان :

سألتك بالله يا نبي الله أن تأمر الريح أن تحملني إلى الهند ، فإني لا أطيق الجلوس بأرض رمقني فيها ملك الموت !

قال له نبي الله سُليمان : إنّ الخلائق أمام ملك الموت

كطعام على مائدة طاعم يختار منها ما شاء ، وإن السَّفر لن يطيل عمرك ، والإقامة لن تُنقصه!

ولكن الوزير بقيَ يناشده حتى رقّ قلب نبي الله له ، وأمر الريح أن تحمله إلى الهند!

بعد قليل عاد ملك الموت ودخل على نبي الله سُليمان ، فسأله سُليمان : لمَ كنتَ تطيل النظر إلى الوزير يا ملك الموت؟

فقال ملك الموت : إنَّ الله أمرني أن أقبض روحه بعد قليل في الهند ، ولما دخلتُ مجلسكَ قلتُ في نفسي ما الذي سيحمل هذا الرجل إلى هناك ، ولم يتبقَّ من عمره إلا قليل ! ولكني علمتُ أنّ أمر الله نافذ لا محالة ، فلما ذهبتُ إلى الهند وجدته ينتظرني هناك !

حكمة قاضٍ

يُحكى أنّ أخوين جاران أوتيَ كل واحد منهما نصف زينة الحياة الدنيا ، فكان الأول كثير المال محروم العيال ، وكان الثاني كثير العيال محروم المال .

وكان الغنيّ سيء الطباع ، شديد الأطماع ، والفقير كريم الخصال ، حلو اللسان .

وكان الغني إذا عاد إلى بيته ركض إليه أولاد الفقير ، وهشوا له وبشوا ، لكنهم لم يكونوا يجدوا منه ريقاً حلواً ، وكلاماً عذباً ، فقد كان يجد ضيقاً في نفسه ، أنّ لأخية أولاداً وقد حُرم منهم .

واستمر الحال على هذا المنوال ، واشتهى أولاد الفقير لحماً ، فقال الفقير للغني :

صفٍّ نيّتك ، واعقد العزم على أن تنذر أن تعطي الأولاد خروفاً إنْ مَنّ الله عليك بولد .

قال الغني : نذرتُ إن رزقني الله بولد أن أعطيك خروفاً تذبحه لأولادك .

ودعا الفقير للغنيّ ، وشاء الذي يقول للشيء كن فيكون ، أن تحبل زوجة الغني .

طالب الفقير أخاه أن يفيَ بنذره ، ولكنه تباطأ وتلكأ ، فما كان من أولاد الفقير إلا دخلوا زريبة عمهم وأخذوا خروفاً كان يرونه حقّهم ، فذبحوه وأكلوه .

أحصى الغنيُّ خرافه فوجدها ناقصة ، فعلم أنّ هذا من فعل أخيه .

رفع شكواه للقاضي ، وجاء رسول القاضي إلى الفقير ، مخبراً إياه بموعد جلسة المحاكمة .

في اليوم الموعود حمل الغنيّ زاداً مما لذّ وطاب ، وحمل الفقير خشن الزاد ، ومضى كل منهما يريد مجلس القاضي .

في الطريق وجد الغنيّ حطّاباً قد غاصت حمارته في الطين ، فلا يستطيع إخراجها ، فطلب مساعدة الغنيّ ، لكنه لم يلتفت إليه .

وصل الفقير إلى الحطاب فطلب الحطاب مساعدته ، أمسك الفقير ذيل الحمارة والحطاب رأسها ، وأخذا يدفعان باتجاه واحد ، فجذب الفقير الحمارة جذباً قوياً ، فانقطع ذيلها ، فقال له :

لقد شوّهت منظر حمارتي ، والله لأشكونّك إلى القاضي !

تابع الفقير سيره مهتماً مغتماً ، فبعد أن كانت عليه شكوى ، صارت عليه اثنتان .

وصل إلى المدينة ، وتوجه إلى المسجد ليصلي الظهر ، ويدعو الله قبل أن يتوجّه إلى مجلس القاضي .

كان مؤذن المسجد في ذلك اليوم مريضاً ، فطَلَبَ من الفقير أن يصعد المئذنة ويؤذّن للصلاة كعادة النّاس في ذلك الزمان . صعد الفقير المئذنة وبدأ بالأذان ، وما كاد يحرّك قدمه حتى سقط ، فإذا به يقع على رجل ويرديه قتيلاً . تجمّع أهل القتيل وأخذوا يضربونه ، فحال المارّة بينهم وبينه ، فعزموا أن يرفعوا شكواهم إلى القاضي .

وصل الغنيّ وصاحب الحمار ، وأهل القتيل ، إلى مجلس القاضي قبل الفقير ، ورفعوا شكاويهم ، فإذا هي في رجل واحد!

وصل الفقير إلى مجلس القاضي ، وطرح السلام ، ووقف ينتظر الحكم .

نادى القاضي على الغنيّ والفقير فامتثلا أمامه .

فقال القاضي للغنيّ : ما شكواك على هذا الرجل؟

قال الغنيّ : هذا الرجل يا حضرة القاضي دخل زريبة مواشيّ وسرق خروفاً!

قال القاضي للفقير : ما قولك ؟

قال الفقير : يا سيدي القاضي لستُ من أخذ خروف أخي ، ولكنّهم أولادي ، لم يُرزق أخي بأولاد ، وكان قد نذر إن رزقه الله ولداً أن يعطيهم خروفاً ، فلما رزقه الله ولداً حنث بوعده ، فما

كان منهم إلا أن دخلوا زريبته ، وأخذوا ما وعدهم به .

قال القاضي للغنيّ : أحقاً ما قال أخوك ؟

قال الغني : أجل يا سيدي القاضي ، ولكني كنت أريد أن أعطيهم ، ولكن بعد أن أطمئن أن هذا الولد سيعيش .

قال القاضي : ما أرى أن الله رزقك ولداً بعد انقطاع إلا لخاطر هؤلاء الأولاد ، وقد حكمنا أن يُرجعوا إليكَ خروفك وتعطيهم ابنك ، أو تدفع لهم عوضاً مئة ليرة ذهباً !

أذعن الغني لحكم القاضي ، واخرج مئة ليرة ودفعها للفقير ، وأخذ ينظر إليها تفارقه ، كأن روحه تفارق جسده .

ثم قال القاضي لصاحب الحمارة : قف بجانب خصمك وارفع شكواك !

قال صاحب الحمارة : يا سيدي القاضي هذا الرجل جذب ذيل حمارتي فقطعه ، وأنا أريد تعويضاً على ما نزل بي من ضرر .

قال القاضي للفقير : ما قولك؟

قال الفقير : يا سيدي القاضي ، مررتُ بهذا الرجل فإذا حمارته عالقة بالطين ، وهو يحاول إخراجها ، فلا يستطيع ، فطلب مني أن أساعده ، فأخذ يدفعها من رأسها ، وجذبتها من ذيلها فانقطع في يدي .

قال القاضي لصاحب الحمارة : أصحيح ما قال صاحبك ؟

فقال : أجل يا سيدي القاضي

فقال القاضي : قد حكمنا أن تعطيه حمارتك يبقيها عنده حتى يطلع لها ذيل!

قال صاحب الحمارة : ولكني لا أستطيع أن أقوم بعملي دونها!

قال القاضي : إذاً أعطه خمس ليرات ذهبيّة جزاء مساعدته لك ، وجزاء لك لأنك أردت أن تموت المروءة بين الناس!

ثمّ نادى القاضي على وليّ القتيل وقال له : قف بجانب خصمك وارفع شكواك!

قال الرجل : يا سيدي القاضي ، إن هذا الرجل سقط على أخي من مئذنة المسجد فقتله

قال القاضي للفقير : أصحيح ما قال صاحبك ؟

قال الفقير : يا سيدي القاضي طلب مني المؤذن أن أرفع الأذان ، فصعدت المئذنة ، ولكني تعثّرتُ فسقطت ، فإذا أنا فوق أخيه فمات !

قال القاضي لأخ القتيل : أصحيح ما قال صاحبك؟

قال : أجل

قال القاضي : قد حكمنا أن تصعد المئذنة ويقف الرجل تحتك وتقفز عليه ، فإذا قتلته أخذت قصاصك منه!

قال الرجل : يا سيدي القاضي المئذنة عالية ، وإن أخطأتُ مت أنا

قال القاضي : إذاً تدفع له عشر ليرات لتعرف أن الأعمار بيد الله ، ينهيها على يد مَن شاء من خلقه

فأخذ الفقير المال كاملاً وعاد إلى بيته مسروراً .

المُحتال والحمقى

يُحكى أن ثلاثة إخوة حمقى ، كان عندهم مال كثير ، وبيوت متلاصقة ، يجلسون في حدائق منازلهم عصر كل يوم ، يراقبون الرائح والغادي .

أراد أحد المحتالين أن يوقع بهم ، فمرّ ذات يوم أمام بيت الأول ، ووضع في مؤخرة الحمارة ليرتين ذهبيتين ، ولما صار قبالته ضرب الحمارة فنزلت الليرة الأولى ، فأخذها ومسح عليها ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم ضربها ثانية فنزلت الليرة الثانيّة ، فأخذها ومسح عليها وحمد الله وأثنى عليه!

وذهب قبالة الثاني وصنع صنيعته الأولى .

ثم ذهب قبالة الثالث وصنع صنيعتيه !

اجتمع الإخوة الثلاثة بعد أن رأوا عجباً ، وقرروا شراء الحمارة ، قصدوا بيت المحتال وطلبوا منه شراء الحمارة ، فامتنع وقال لهم :

إنّ هذه الحمارة كنز أعطانيه الله فكيف أفرّط به ؟

فما زالوا يطلبونها ويرفعوا سعرها وهو يتمنّع ، وبعد أن

عرضوا عليه مبلغاً كبيراً ، وافق على بيعها .

دفعوا له المال وأخذوا الحمارة .

واتفقوا على أن تكون الحمارة كل يوم لواحد منهم ، أخذ الأول الحمارة فأطعمها ، وبدأ يضربها دون أن يحدث شيء ، وما كاد يحل المساء حتى أُصيب بالإنهاك ، وما عادت الحمارة تقدر على الوقوف من شدة الضرب .

صبيحة اليوم التالي دفع الحمارة لأخيه ، وأخذ يضربها حتى أصابه التعب ، وأُنهكت الحمارة .

فدفعها لأخيه الثالث ، فحدث معه كما حدث لأخويه .

عرف الإخوة أن الرجل محتال ، فقصدوا بيته يريدون أن يقتصوا منه .

رحّب بهم وقال لهم : لا بدّ قبل أن نتحدّث أن تهدأوا ونتناول طعام الغداء معاً . فأنتم ضيوفي ولكم بعدها ما تريدون .

أجلَسَهم ودخل وأخرج أرنباً ثم أخرج ورقة وقلماً وكتب فيها :

رطل لحم ، وكيلو أرز ، وفاكهة وخضار .

ثم أحضر سلة ، ووضعها في رقبة الأرنب ، ووضع الورقة ومالاً في السّلة وقال له : اذهب إلى السوق وأحضرْ هذه الأغراض!

وفتح الباب وأخرجه .

هنا انسلّت والدة المحتال وحبست الأرنب في القبو، وذهبت إلى السوق واشترت الحاجيات، وعادت وأخرجت الأرنب ووضعت السلة في رقبته، وطرقت الباب وتوارت!

فتح المحتال فإذا الأرنب بالباب والسّلة برقبته، وفي السلة الأغراض، فدُهش الحمقى للمشهد، ونسوا قصة الحمار، وأرادوا أن يشتروا الأرنب!

وبدأوا يعرضون عليه أغلى الأثمان وهو يرفض، وهم يزيدون في السّعر، إلى أن وصلوا إلى مبلغ لا يمكن رفضه، فباعهُ لهم!

عادوا إلى بيوتهم على أن يبقى الأرنب في بيت كل واحد منهم يوماً، يقضي له حاجاته، ويجلب من السوق أغراضه!

أحضر الأول الأرنب، ووضع برقبته سلة وورقة حاجيات، وقال له: اذهب!

ولكنّه تسمّر في مكانه، ولم يحرّك ساكناً!

وكذلك حصل مع الثاني والثالث!

فأجمعوا أمرهم أن يذهبوا لعقابه، وهم في الطريق رأوا شيخاً كبيراً، يعرفونه ويعرفهم، فسألهم إلى أين المسير؟

فقصوا عليه قصّتهم، فقال لهم: أرى أن ترجعوا فمن استغباكم مرّة فَلِخصلةٍ سيئة فيه، ومن استغباكم مرتين فلِحُمقٍ فيكم، فاستروا على أنفسكم وعودوا إلى بيوتكم!

وهكذا كان!

رؤيا الشّتاء والصّيف

يُحكى أنّ رجلاً جاء إلى ابن سيرين ، مفسّر الأحلام العظيم ، وقال له :

يا إمام ، أني رأيتُ ناراً بموضع كذا .

فقال له ابن سيرين : اذهب واحفر حيثُ رأيتَ النار !

ذهب الرّجل مسرعاً ، وحفر حيث رأى النّار في منامه ، فوجد جرّة مملوءة ذهباً ، ففرح بها أيما فرح ، وتبدّلت أموره بعد عسر يُسراً ، وانقلبت أحواله بعد كدرٍ فرجاً !

مضت الأيام ، نهار يطويه ليلٌ ، وليل يطويه نهار ، ورأى الرّجل ذات الحلم القديم ، رأى ناراً تشتعل بمكان فلاة .

فلما استيقظ قال في نفسه : ما حاجتي للذّهاب إلى ابن سيرين ، فتفسير الرؤيا عندي !

ذهب وحفر حيثُ رأى النّار ، فإذا به يُخرج جثّة رجل قُتل بالأمس ، فتملّكه الفزع ، ووقع عليه النّاس ، واتهموه بقتله ، وحملوه إلى القاضي الذي أمر بحبسه ، وحدد موعداً يُعدم فيه ، فالقاتل يُقتل !

قبل أن يُنفَّذَ الحكم بالرجل سأله القاضي : ألكَ حاجة قبل موتك نقضيها !

قال الرجل : أريد أن تحضروا لي ابن سيرين !

لما حضر ابن سيرين ، قال له الرّجل :

يا إمام ، إني حضرتُ إليكَ ذات يوم لتعبّر لي رؤيا نار رأيتها في مكان ، فقلتَ لي اذهب واحفر حيث رأيتَ ، فذهبتُ وحفرتُ ، ووجدتُ جرّةً مملوءة ذهباً ، ثم مضت الأيام ، ورأيتُ ناراً في موضع آخر ، فقلت في نفسي ما حاجتي لآتيك ، فإنك ستقول لي اذهب واحفر ، فذهبتُ وحفرتُ فإذا أنا على جثة رجل اتهموني بقتله ، وأنا لا أعرفه ولا يعرفني !

فقال له ابن سيرين : عندما رأيتَ النّار أول مرّة كان الوقتُ شتاءً ، والنار فاكهة الشّتاء ، يقترب الناس منها ، ويأنسون بها ، فهي مطلوبة مرغوبة!

ولكنّك حين رأيتها هذه المرّة ، كان الوقتُ صيفاً ، ونار الصيف مكروهة متروكة! ولو أنّك حضرتَ إليّ لقلتُ لكَ : إياكَ أن تذهب حيثُ رأيتَ النار !

حتى لا تضيع المروءة بين النّاس

يُحكى أن ملكاً كان يحب الخيل حبّاً جمّاً ، فلا تقع عيناه على فرس ممشوقة إلا أراد امتلاكها ، ولا لَمَحَ بصره حصاناً يسابق الريح إلا أراد اقتناءه!

وحدثَ أنَ ابن ملك المملكة المجاورة كان عنده فرس ليس لها في الأرض مثيل ، فرغب الملك بشرائها ، ولكن الأمير رفض متذرعاً ، أن الملوك لا تبيع الخيل بل تهديها ، وإن هذه الفرس لا تُهدى لأنها تذكار من أمه المتوفاة!

جُنّ جنون الملك ، وجمع أعوانه يستشيرهم كيف يحصل على الفرس ، فقال له أحد أعوانه : أنا آتيكَ بها !

فقال الملك : وإن لم تفعل؟!

قال الرجل : رقبتي دونك ، ولكَ أن تنزل بي قصاصك !

فوافق الملك ، وأبدى ارتياحاً من تصميم الرجل وثقته بنفسه .

عرف الرجل طريق سير الأمير ، فقد اعتاد أن يذهب كل يوم ليصطاد في ناحية معروفة .

فكَمَنَ في مكان قريب من الطريق يرقب المُقبل ، ويتأمل المُدبر ، حتى أقبل الأمير ، فسارعَ ونامَ في وسط الطريق ، وأخذ يتلوى كمن نزل به ألم شديد!

كان الأمير شهماً ، فنزل عن فرسه مسرعاً ، وأخذ يتفقد الرجل ، أسنده إلى ذراعه ، وسقاه شربة ماء ، ثم وضعه على الفرس ، وأمسك بلجامها يجرها ، والرجل راكب!

قال الرجل للأمير : من العيب أيها الأمير أن أركب فرسكَ وأنت تمشي!

فقال الأمير : أنتَ رجل مريض ، والعيب أن أركبَ أنا وتمشي أنت!

فقال الرجل : إن كنتَ مُصراً على أن أركب فأفلت لجام الفرس ، فلا يليق بك أن تجرّ دابة يركبها عامة الناس !

ناوله الأمير لجام الفرس ، فاعتدل في جلسته وهرب فتبعه الأمير يقول له : توقف ، توقف ، توقف . . .

قل للناس أنكَ ربحت الفرس مني في نزال ، ولا تقل لهم كيف احتلت لتأخذها ، فإني أخاف أن تضيع المروءة بين النّاس!

نزلت هذه الكلمات كالصاعقة على رأس الرجل ، فقد جعله الأمير بلحظة واحدة يشعر كم هو وضيع ، فنزل عن الفرس ، وتوجه صوب الأمير وقصّ عليه قصته ، وطلب منه العفو !

فسامحه الأمير على الفور ، وسمح له أن يقيم في مملكة أبيه كي لا يبطش به ملك المملكة المجاورة !

قم فقد سرّيتَ عني

يُحكى أنَّ أحد الولاة أنجبتْ له زوجته بنتاً ، فاهتمّ واغتمّ ، وانقطع عن النّاس أياماً ، فقد رغب بولدٍ يحمل اسمه ، ويحكم النّاس بعده .

نصحه بعض أصدقائه ، وذكّروه بقضاء الله وقدره ، وأنّه يهب لمن يشاء الذكور ويهب لمن يشاء الإناث ، ولكنه ظلّ يجد ضيقاً في صدره ، وكمداً في قلبه .

سمع رجل دميم الوجه بقصة الوالي فعزم أن يأتيه ، استأذن في الدخول على الوالي ، فأذن له ، ولما حضر بين يديه قال له :

يا سيّدي الوالي ، لو أنّ الله رزقكَ بغلام بدمامتي وقبحي ماذا كنتَ فاعلاً؟!

ضحك الوالي كما لم يضحك من قبل ، وقال للرجل بعد أن صرف له عطيّة :

اذهب فقد سرّيت عني!

من يُعلّم الحمار

يُحكى أنّ أحد بلهاء الملوك كان عنده حمار ، أعجب به ، ووضع مكافأة كبيره لمن يعلمه القراءة والكتابة في عشر سنين ! وتعهّد أن يعطي راتباً لمن يقوم بهذه المهمة ، طوال مدة القيام بها .

وكان قد اشترط على من يقبل هذه المهمة أنّه سيقطع رأسه إن فشل في مهمته .

تطوّع أحد الشبّان الفقراء لهذه المهمة ، فلامه بعض أصدقائه ، لأن ما قام به عمل أحمق ، لا نتيجة منه ، وأنّ القتل قصاصه لا محالة ، فقال له :

عشر سنين عمر طويل ، فإما أن يموت فيها الملك ، أو يموت الحمار ، أو أموت أنا ! وبهذا أكفل عيشاً كريما طوال هذه السنوات .

أدب طبيب

يُحكى أن زوجة أحد الملوك أصابها مرض نادر ، حار الأطباء في أمرها ، وأعيتهم علتها ، فلم يستطيعوا لها علاجاً ، ولا وجدوا لعلتها دواءً .

مرّ طبيب أعشاب قرب قصر الملك ، فسمع حرّاسه يتحدثون بمرض الملكة ، فطلب أن يعاينها .

أخبر الحرّاس الملك بأمر الطبيب ، فلم يجد الملك حرجاً أن يعرضها عليه ، فقد تقطّعت به السُبل ، وأعيته الحجج!

اصطحب الملك الطبيب حيث ترقد الملكة ، فعرف داءها على الفور ، وطلب من الملك أن يمهله حتى الغد ليُحضّر للملكة دواءها .

ذهب الطبيب إلى الغابة ، وقطع نبتة يعرفها ، وعاد بها إلى منزله ، وصنع منها دواءً .

في الصباح جاء الطبيب إلى قصر الملك ، وصعد برفقته إلى غرفة الملكة ، وأعطاها الدواء ، وأخذ يكرر هذا العمل ، وصحة الملكة آخذة في التّحسن شيئاً فشيئاً ، حتى برئت من

علّتها ، واستعادت عافيتها!

سُرَّ الملك سروراً عظيماً ، وعزم أن يعطي الطبيب مكافأة كبيرة ، فقال للطبيب :

سل تُعطَ ، ولا يردّك إلا لسانك ، فكما أدخلتَ السرور على قلبي ، فإني عزمتُ على أن أدخل السرور على قلبك !

فقال الطبيب : أيها الملك ، أريد أن تكون مكافأتي زجاجة ماء ورد !

تعجّب الملك من هذا الطلب البسيط ، وسأله عن السبب .

فقال الطبيب : أريد أن أرشّها على النبتة التي جعلتني أُدخل السرور على قلب الملك!

استحسن الملك جوابه ، وقرّبه منه .

هارون الرشيد وأبو نوّاس

يُحكى أنّ هارون الرّشـيـد كـان خـفـيف الظلّ ، يحب الضحكة ، ويديم البسمة ، وقد قرّب إليه جماعة من لطفاء الأدباء وظرفائهم ، يسامرهم ، ويأنس بحديثهم ، ويتسلى بأخبارهم .

وفي ليلة باردة قال الرّشيد لجلسائه : مَن يبقى هذه الليلة كلّها تحت المزراب فسأعطيه ألف دينار!

قال أبو نوّاس : أنا أفعل يا أمير المؤمنين ؟

قضى أبو نوّاس ليلته تحت المزراب ، تنخر الريح الباردة عظمه ، ويحفُّ الماء البارد جلده ، حتى طلع الصبح!

استغرب الرشيد من قدرة أبي نوّاس ، فقال له : لعلّكَ تدفّأت يا أبا نواس؟!

قال أبو نوّاس : يا أمير المؤمنين : والله ما مسست ناراً ، اللهم إلا أنّي رأيتُ ناراً على الجبل قبالتي ، لعلّ أحد الرعاة أوقدها !

فقال الرشيد : لقد تدفّأتَ بها يا أبا نوّاس ، ولم يعطه شيئاً!

دارت الأيام، ودعا أبو نوّاس الرشيد وحاشيته لتناول الغداء عنده.

عند الظهر حضروا، وانتظروا الغداء ولكنّ شيئاً لم يحضر.

سألوا أبا نوّاس عن الغداء، فقال لهم: الطعام على النّار، وكلما استفسروا عن الغداء، قال لهم: على النّار!

نفد صبر الرّشيد، وأراد أن يرى هذه النّار التي لا تُنضج طعاماً، فخرج ليرى ما يفعل أبو نوّاس، فوجده قد علّق قدراً بالشجرة، وأوقد تحت الشجرة شمعة!

صُعق الرشيد مما رأى، وقال له: كيف ستُنضج هذه الشمعة الطعام؟

فقال أبو نوّاس: كما تدفّأتُ أنا بنار الجبل!

فضحك الرشيد حتى كاد يُغشى عليه.

لمَ وكما !

يُحكى أن أحد الولاة أخذ يظلم الرعيّة ، يكلفهم ما لا يُطيقون ، ولا يعطيهم ما يستحقّون ، فعزموا أن يتوجهوا إلى بغداد ، ورفع شكواهم للخليفة العباسيّ هناك!

شكّلوا وفداً برئاسة أحد الحكماء ، وانطلقوا يريدون بغداد ، وعندما صاروا بين يدي الخليفة ، وقف الحكيم وقال : لمَ ؟

فقال الخليفة : كما !

فأشار الحكيم لمن معه أن قوموا فقد انتهى اللقاء .

تعجّب الوفد من هذه الألغاز ، وطلبوا معرفة الحوار الذي دار بين الحكيم والخليفة .

قال الحكيم : قلتُ للسلطان : لمّ هذا الظلم من وُلاتك ؟

فقال : كما تكونوا يولّى عليكم !

المعاملة بالمثل

يُحكى أن جماعة من الفلاحين عثروا في أحد الحقول على بيض حيّة ، فما كان منهم إلا أن نقلوه من مكانه إلى مكان آخر ، ووقفوا يرقبون ماذا ستفعل الحيّة !

عادت الحيّة فلم تجد بيضها ، فعمدت إلى جرة الماء التي يشربون منها ، ونفثت فيها سمّها !

فما كان من الفلاحين إلا أن أعادوا بيض الحيّة إلى مكانه ، وكمنوا ينظرون ماذا ستفعل .

حضرت الحية فإذا بها تجد بيضها ، فتوجّهت على الفور إلى جرة الماء ، ولفّت نفسها حولها ، وأخذت تحرك جسمها حتى قلبتها وانسكب الماء المسموم على الأرض !

ما كان معك ثمنه فهو رخيص

يُحكــى أن رجـلاً اصطحب ابنه معـه لزيارة صـديق له ، وكـان طريقـهـمـا من السّوق ، وسـمـعـا رجـلاً يُنادي أنّ الجـمل بدرهــم !

فقال الولد لأبيه : يا أبتِ ، اشترِ لنا جمَلاً

فقال الأب : إنّه غالٍ بدرهم !

مرّت الأيام ، يوم يعقبه آخر ، ومرّ الأب وابنه من السّوق ، فسمعا رجلاً يُنادي أن الجمل بمئة درهم!

فقام الرجل إلى صاحب الجِمال ، وناوله مئة درهم ، وأخذ جملاً ومضى !

فـقـال له الولـد : يا أبتِ ، في العـام الماضي طلبتُ منكَ أن تشتري جملاً ، فقلتَ لي إنه غالٍ وقد كان ثمنه درهماً ، واليوم دفعتَ ثمنه مئة درهم!

ابتـسم الأب ، وقـال لابنه : يا بُنيّ ، إنّ كلّ ثمنٍ قليلٍ هوَ كـثيرٌ على مَن لا يملكه ، وكلّ ثمنٍ كـثيـرٍ هو قليلٌ على مَن يملكه ، في العـام الماضي مـا كنتُ أجـد درهـمـاً ، فلو باعـوني

الأرض بدرهم ما استطعتُ أن أدفع ثمنها ، وهذا العام فتح الله علينا ، فكانت المئة درهم في جيبي أقلّ من الدرهم الذي لم يكن العام الماضي معي !

مال الحجيج

يُحكى أن حجيجاً قصدوا مكة عن طريق البحر في سفينة ، وكان على متن السفينة قرد شقي ، لا يستقر في ناحية ، فتارة بين الرّكاب ، وتارة على السارية .

وضع الحجيج أمتعتهم وحقائب أموالهم أمانة عند ربّان السفينة ، فأخذ القرد حقائب الأموال ، وصعد سارية السفينة ، وجعل يفتح حقيبة مال الرجل ، فيلقي بعض ماله في البحر ، وبعض ماله على ظهر السفينة ، ثم يفعل هذا بمال الثاني ، فالثالث !

فقال أحد الظرفاء على السفينة : إن الله طيّبٌ لا يقبل إلا طيّباً ، فوالله إنّ هذا القرد يفصل الحرام عن الحلال !

المحامي والقرويّ

يُحكى أنّ قرويّا قصد المدينة لبعض حاجته ، فادّعى أحد سكان المدينة عليه بجناية هو منها بريء ، فاقتادوه إلى المحكمة ، ولم تكن المحاكم معروفة في القرى ، وكانت أول عهدها في المدن .

افتتحت الجلسة ، وأخذ المحامي يصول ويجول ، ويدافع عن ابن المدينة ، ويتهم ابن القرية ، وابن القرية مذهول مشدود ، ثم قال للقاضي :

والله إنّ هذا الشاهد ما كان وما رأى ؟

ثم فهم أخيراً أن الرجل ليس شاهداً ، وأنّه المحامي !

فقال القرويّ : أطلب يا حضرة القاضي أن ترفع الجلسة حتى يتسنى لي أن أُحضر كذاباً مثل هذا الكذّاب !

الحمار سمكة!

مكتبة Ahmad

يُحكى أنّ الحمار قصد الأسد شاكياً باكياً ، وقال له :

يا ملك الزمان ، جئتك شاكياً ظلم الإنسان ، وجور الحيوان ، فلا يوقرني أحد ، والكل على نداءٍ واحدٍ لي : يا حمار ، يا حمار!

فقال له الأسد : وما أفعل لكَ ، إن كان اسمك حماراً ، وبه تُعرف ، ولا بدّ لكل مخلوق من اسم؟

فقال الحمار : أرى أن تُغيّر لي اسمي يا مولاي الملك !

فقال الملك : وما أُسمّيك ؟

فقال الحمار : سمّني ما شئت إلا الحمار !

فقال الملك : سأسمّيك سمكة ، فما رأيك ؟!

سُرّ الحمار باسمه الجديد ، وأخذ يطوف الغابة ، ويخبر كل من يلقاه بأنه لم يعد حماراً بعد اليوم .

مرّ تحت شجرة فناداه هُدهد من أعلى : يا حمار

فقال الحمار : أنا لستُ حماراً بعد اليوم ، لقد صار اسمي سمكة!

فقال له الهدهد : وهل تستطيع السباحة؟

قال الحمار : لا

فقال الهدهد : ستبقى حماراً ولو صرتَ مستشاراً